

دومينيك قاليل الناس والحياة في مصر القديمة

ترجمة ما هرجويجاتي
مراجعة د. زكية طبوزادة



الناس والحياة
في
مصر القديمة

الطبعة الثانية
القاهرة ٢٠٠١
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة : ٤٠ ش هشام لبيب - مدينة نصر - المنطقة
الثامنة

أسسها

الدكتور طاهر عبد الحكيم ١٩٨٤

تليفون : ٢٨٧٥٠٧٤

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع البعثة
الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة

_____ كتاب الفقه ١٤ _____

دومينيك قاليل

الناس والحياة في مصر القديمة

مراجعة
د. زكية طبوزادة

ترجمة
ماهر جويجاتي



هذه ترجمة لكتاب :

LA VIE
DANS
L' EGYPTE ANCIENNE

" Dominique Valbelle "

ISBN 213 041730 2

Dépôt légal — 1^{re} édition : 1988, juin

© Presses Universitaires de France, 1988
108, boulevard Saint-Germain, 75006 Paris

المقدمة

تشهد آثار مصر الفرعونية على الأهمية التي أولاها إنسان ذلك العصر للحياة الآخرة التي طغت على الحياة الدنيا . فقد حافظ لنا الزمن على مقابر الملوك وعلية القوم التي شيدها المصريون ، في معظمها ، بالحجر أو نقروها في الصخر ، بينما اقتصر استخدام الطوب اللبن ، تقريباً ، على تشييد القصور والدور الفخمة أو البيوت المتواضعة سواء بسواء . ويلاحظ أن الفضل في الاحتفاظ بفكر المصريين القدماء وعاداتهم اليومية واحتياجاتهم يرجع غالباً ، إلى هذه المعتقدات .

وفي الواقع ، ربما كان من الممكن التنقيب في بعض المدن أو القرى القديمة ، أو إلقاء نظرة على سجلات المحفوظات التي وصلت إلينا ، أو مطالعة القصص والحكم التي احتفظ لنا بها الزمن ، ولكن من المؤكد والثابت أن الإضافة الحقيقية والأساسية لا تتوفر إلا من خلال النصوص والصور المنقوشة أو المرسومة على جدران هذه المقابر ، أو ما سلّم من محتوياتها من أعمال النهب والسلب ، وتبعاً للعصر وإمكاناته الشخصية ووظيفته كان المصري يختار بعناية ، ما يود تسجيله على جدران الدار التي ستصبح بعد وفاته ، داراً للأبدية ، فيصور أهم أحداث حياته ، والمقرين إليه من أفراد أسرته ، والعاملين معه ، وأعز ما يمتلك . كما كان المصري القديم يروي أهم أحداث حياته ، ويسترجع ذكرياته المهنية ، ويسجل ما قد يكون له من علاقات بفرعون أو بأحد الأعيان ، كما احتوى المتاع الذي يرافق جنازة المتوفى إلى جانب البياضات ، على الأثاث والأدوات والأطعمة . ومنذ نهاية الدولة القديمة وحتى بداية الدولة الحديثة ، أضيفت إلى هذه الإيضاحات التصويرية التي تغطي الجدران نماذج مصغرة من المبانى والأنشطة الحرفية والزراعية . ولئن كان علم الآثار عادة ما يقدم لنا مكتشفاته بطريقة جامدة تحتاج إلى تفسير ، فإن تنوع هذه الوثائق يفيض بالحياة والنضارة . ولكن هذه الصور لا

تمكس كل الحقيقة ، ومن ثم فإنه لا ينبغي أن نأخذها على علاتها ، بل علينا أن نفهمها فى إطارها الحقيقى . فمشاهد الأنشطة والصور التى تمثل الممتلكات المختلفة ، إنما هى تجسيد لقوالب ثابتة ، مع استثناء الصور التوضيحية للأناشيد الجنائزية التى تعين المتوفى فى حياته فى العالم الأسفل . كما أن السير الذاتى ، كثيراً ما لا تتركز إلى معلومات حقيقية ، إلى جانب ما تزخر به من مباحاة وفخر يتكرران دون ملل أو كلل . ومن ناحية أخرى كانت الورش المتخصصة تتولى صناعة الأثاث الجنائزى الذى لم يكن بالضرورة مطابقاً للأثاث الذى يستخدمه الإنسان فى حياته العادية . غير أن بعض الإشارات تفلت أحياناً من بين ثنايا تسجيح التقاليد المصرية المثين ، فتفضى إلينا بمعلومات جديدة : فالفقراء مثلاً يدفعون بشبابهم القديمة ، إلى جانبهم أثاثهم القديم . وقد حدث فى نهاية الدولة القديمة وفى الفترة الإنتقالية الأولى ، تزايد نفوذ بعض حكام الأقاليم ، فأطنبوا فى أحاديثهم ، وحفلت رواياتهم بالقصص التى تدور حول اضطراب الأحوال ، وبالحكم التى استخلصوها من تقلبات الزمن . ومع حلول الأسرة الثامنة عشرة ، وخلال أزمة العمارة ، تجددت موضوعات التصوير الفنى ، واتجهت إلى نقل الطبيعة بأسلوب أقرب إلى واقع الحياة اليومية .

ومع كل ما فى هذه المشاهد من جاذبية ، إلا أنها تمكس مديحاً وإطراءً للمصرى ويشتتة يتفقان والإنطباع الذى يود أن يتركه وراءه بعد وفاته . صحيح أنه لم يدر بخلد المصيرين القدماء أن يمتعوا ملايين السياح الذين يزورون مقابرهم كل عام بهذه المشاهد . كما أن أعمال سلب ونهب المقابر كانت من الأمور الشائعة منذ القدم ، هذا بالإضافة إلى إعادة استخدامها لدفنان جديدة . ورغم ذلك فقد ظل أمل كل مصرى قوياً ، لا يتزعزع ، فى أن جثمانه سيظل بعيداً عن أية إنتهاكات وإنه لن يتعرض للأذى فى وقاده الأخير ، وأن اسمه سيظل

محل تكريم من كل عابر سبيل ، ولذلك توجه بنشاطات في هذا الاتجاه سجلها في المقصورات التي يترافد عليها الأحياء لوضع القرايين من أجل موتاهم . وكانت هذه المشاهد محصلة موجزة لتراث الدنيا بأديانها ، ومعنوياتها . وبذلك لم يكن المتولى يتقصه شيء ، فالولاء في نظر المصريين ، مجرد إنتقال من حياة إلى أخرى ، ليس بينهما اختلاف واطيح .

ومن ثم فإنه سيكون أكثر مدعاة للإطمئنان من الناحية العلمية أن نعتد في بحث الحياة اليومية لقدماء المصريين على الآثار الحقيقية لوجودهم . ولكن هل يمكن الوقوف على مجمل حياة إنسان بالاستناد إلى بعض واجهات جدارية أو نفايات حصلنا عليها من أماكن تجميع المخلفات . أما إذا أسعفنا الحظ فلن يزيد ما يمكن أن نجمله عن أجزاء بسيطة لسجلات إدارية . لقد مرَّ ما يزيد عن عشر سنوات ، منذ أخذت حلائر الأثريين تتركز في مدن وادي النيل وتلغى إلى نتائج ملموسة . فتوصلنا إلى تحديد الإطار البيئي الذي عاش فيه قدماء المصريين ، والنظام الغذائي الذي اعتمدوا عليه بمساعدة العديد من العلوم الثانوية . وانكب العلماء على دراسة ما حفظه لنا الدهر من مدونات رسمية ، وملفات إدارات المحفوظات ، وعقدوا بينها المقارنات ، فطوروا معارفنا حول البناء الاقتصادي والاجتماعي لمصر في العصور المختلفة . ومن ثم توصلوا إلى سد الفراغ الناشئ عن قلة الوثائق . وعلى هذا فإنه لا بد من التواضع ، وتجنب تحميل المعلومات المتاحة بأكثر من معناها الحقيقي حتى يكون من الممكن القيام بأجل بهيئت من أكثر الأبحاث صعوبة . ولكنه يتعلق بأكثر فترات التاريخ إثارة ، ألا وهو استرجاع حياة شعب من أقدم شعوب العالم المتحضر ، ليروي لنا قصته على امتداد ألفي سنة بدءاً من الدولة القديمة (حوالي عام ٢٧٠٠ ق . م) وحتى نهاية الدولة الحديثة (١٠٨٨ ق . م) . حقاً ، إنه ليبحث من أشق الأبحاث التي

يطرحها التاريخ وأكثرها إثارة أيضاً .

ومن نافذة القول ، أنه رغم ما عرف من تأصيل نزعة الحفاظ على التقاليد الموروثة في نفوس سكان وادي النيل ، فإنه يصعب علينا استبعاد أى اتجاه نحو " التطور " . ويرجع هذا التطور إلى التقلبات التى تؤثر على التوازن الصعب بين سلطة الملك وسلطة حكام الأقاليم من جهة ، وإلى طبيعة ومآل ميزان القوى بين مصر وجيرانها من جهة أخرى . لقد ترتب على هذا " التطور " تغيرات طفيفة ، أو عنيفة أحياناً ، في عادات المصريين وأفكارهم على المدى البعيد . ومن هنا تبرز أهمية الرجوع إلى التاريخ الزمنى باستمرار وعلى الدوام .

✱

✱ ✱

نجحت الأسرتان الأولى والثانية ، في إقامة سلطة موحدة في أرجاء البلاد ، وبادت إلى اتخاذ قرارات سياسية واقتصادية حاسمة ، وأنشأت مؤسسات صارت من القوة بحيث استمر تأثيرها على امتداد تاريخ مصر وحتى دخول الإسكندر .

لفى حوالي ٤٥٠٠ ق . م جرت في مصر عملية مشابهة لما حدث في بلاد النهرين ، إذ تجمع سكان الدلتا ووادي النيل في قرى كبيرة . وتشير المخلّفات التى تركتها هذه القرى إلى وجود إرهابات تنظيم اجتماعى على أساس تقسيم العمل ووجود نشاط حرفى ، تصدرته صناعة الفخار . وخلال الألف الرابع ظهرت عدة حضارات على أرض مصر كانت بعضها على اتصال بالشرق الأدنى ، وأظهرت بعضها براعة فائقة في مختلف الصناعات ، لا سيما الأدوات المصنوعة من الحجر الصلب ومن العاج ، وصناعة الأواني ، والصلابات ، والتماثيل الصغيرة ، ومقابض

السكاكين . وتوحى نوعية بعض هذه الصناعات من جهة ، وأسلوب مسقل بعض الأدوات الظرائية من جهة أخرى ، إلى وجود نوع من التخصص فى العمل . ويمكن اعتبار التقدم الملحوظ فى صناعة الفخار دليلاً على ذلك . ومن ثم فإن توزيع الأعباء داخل الجماعات الريفية كان يفرض نفسه فرضاً . نشأ هذا الوضع الجديد حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . وتواكب مع توحيد الدلتا وراوى النيل تحت قيادة موحدة ، وإن كانت هذه الوحدة تمت على حساب الدلتا .

واتخذ الملك فى هذا العصر المبكر عدة إجراءات استهدفت تدعيم المركزية فى إدارة المملكة الجديدة . ومن هذه الإجراءات تنظيم الرى ، وضبط التجارى المائية ، وعمل حصر للماشية والأراضى الزراعية والذهب المستخرج من المناجم . وتعداد أسرى الحرب ، وربما السكان المحليين أيضاً . كما أسس أولى المراكز الحضرية حيث تجمع القرويون بعد أن هجروا الريف . وكانت أرض مصر ملكاً لفرعون ، وسكانها يعملون فى خدمته . وتأسس جهاز إدارى مستقر يعتمد على تسلسل وظيفى صارم ودقيق . وبقيت لنا بعض الألقاب التى تشير إلى وظائف أصحابها . ومع تزايد التخصص - التى أبقى عليها الزمن - مع مطلع الأسرة الثالثة والأسرة الرابعة على وجه التحديد ، أصبح فى الإمكان تصور بنية المؤسسات ، والسمات الرئيسية لنشأة المجتمع المصرى وبداياته . ومع قيام الأسرة الخامسة ، تلمس بعض التغييرات الهامة التى أدخلت على النظام الملكى ذاته فى علاقاته مع الأجهزة الإدارية بالأقاليم . ومن الآن فصاعداً ، سيتميز تاريخ مصر بالسعى وراء حل وسط ، يجمع فى إنسجام ، بين حكومة مركزية بالضرورة ، وبين النزعة الملحسة إلى تدعيم سلطة الأقاليم .

الفصل الأول

الطبقات الاجتماعية والاعواساط الاجتماعية المعنوية

ترتكز الأبحاث الديموجرافية القليلة عن مصر الفرعونية ، في أساسها ، على تقديرات المحاصيل الزراعية ، فيمكننا اقتراض عدد تقريبي للسكان ، الأمر الذي يترك باب الاجتهاد مفتوحاً للخوض في دراسة منهجية تعتمد على الأرقام التي تتيحها لنا النصوص المصرية القديمة ذاتها .

جدول عدد سكان مصر الافتراضي

(استناداً إلى تقديرات المحاصيل الزراعية) نقلًا عن K. W. Butzer , Early Hydraulic Civilization in Egypt , Chicago , 1976 , P. 83 .

الجدول رقم (٤)

المنطقة	المصر الشيني (*)	الدولة القديمة	الدولة الوسطى	الدولة الحديثة
وادي النيل	٦٠٠ . . .	١ . ٤٠ . . .	١ ١٢٠ . . .	١ ٦٢٠ . . .
الفيوم	٦ . . .	٩ . . .	٦١ . . .	٧٢ . . .
الدلتا	٢١٠ . . .	٥٤٠ . . .	٧٥٠ . . .	١١٧٠ . . .
المحاور	٥٠ . . .	٢٥ . . .	٢٥ . . .	٢٥ . . .
المجملة	٨٦٦ . . .	١٦٦٤ . . .	١٩٦٦ . . .	٢٨٨٧ . . .

(*) اعتاد المؤرخون المحدثون أن يطلقوا على عصر الأسرة الأولى والثانية أسماء عدة منها " العصر العتيق " إشارة إلى قدمه ، ومنها " العصر الشيني " نسبة إلى =

ومن الصعب مقارنة الأعداد الإلتراضية التى نقلناها هنا ، بالأرقام المستمدة من النصوص المصرية القديمة التى تعنى بفئات محددة من السكان فحسب ، فهى عبارة عن حصر لأسرى الحرب ، أو العمال ، أو الفرق التى يجرى تجميعها لعمليات عسكرية محدودة ، أو أفراد البعثات التى يتم تجهيزها لإرسالها إلى المناجم والمحاجر الواقعة فى الصحارى المحيطة بالوادي . إن سجلات التعداد التى لا تزال باقية نادرة وقليلة ، كما أنها ناقصة ومتعلقة بفئة محدودة من السكان . وتقدم لنا هذه الوثائق صورة لنظم إدارية شديدة التعقيد ، متشعبة من هيئة مركزية قاهضة ، وطيدة الأركان ، لم تترك وراءها سوى آثار غير مباشرة من خلال الأجهزة الإدارية المحلية التى خلفت أحياناً شواهد دقيقة . والمثال الواضح لذلك ، مؤسسة عمال الجبانة * بالبر الغربى لمدينة طيبة فى عصر الرعامسة . ويفضل تضافر المعلومات التى عثر عليها بالسجلات مع البقايا الأثرية . أمكن التوصل إلى حقائق قيمة حول قرية العمال التى كانت فى خدمة فرعون . وهى تتكون من أربعين إلى ستين أسرة ، وكل أسرة يتراوح عدد أفرادها بين فردين وستة أفراد ، تعيش فى مسكن مساحتها ما يقرب من سبعين متراً مربعاً . كما وصلتنا معلومات أخرى متناثرة تخص جماعات وعصور مختلفة ، ولكنها لا تشكل أية إضافة حقيقية لكونها معلومات جزئية ومتفرقة .

* نرى * بالقرب من أبيدوس والتى ينسب إليها مؤسس الأسرة الأولى تبعاً لما ذكره مانيتون . ومن الأساء التى أطلقت أيضاً على هذه الفترة الزمانية : * بداية العصر التاريخي * ، و * بداية الأمرات * ، و * العصر المبكر * ، وأيضاً * عصر التأسيس والبناء * . المراجع .

* هى دير المدينة بالبر الغربى للأقصر ، والمعروفة بإسم (مكان الحق) وهى بقايا قرية للعمال إلى جانب مقابرهم (المخرج) .

١ - الغنائات البشوية والطبقات الاجتماعية

كتب هيرودوت ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، في الجزء الثاني من كتابه " تجميع الأخبار " ، الفصل ١٦٤ - يقول : " وتوجد سبع طبقات من المصريين تسمى : طبقة الكهنة ، وطبقة المحاربين ، ورعاة البقر ورعاة الخنازير والتجار والشرجون والملاحون . ذلك هو عدد طبقات المصريين وأسماؤها ناشئة من حرفها " (ترجمة د. صقر خفاجة . الهيئة المصرية للكتاب) . وهذا الوصف الذي يقدمه المؤرخ الأغريقي عن النظام الإقطاعي السائد أبان القرن السادس قبل الميلاد يؤكد وجود هذه الطبقات الاجتماعية التي ترجع أصولها إلى أقدم العصور . ومع ذلك فإن التعرف على هذه الطبقات يبعث على الحيرة ، ولا يتفق مع الأوضاع الاجتماعية في العصور القديمة .

ترجع قائمة " الأونوماستيكون " ، إلى القرن الثالث عشر* . (عصر الرعامسة) وهي من تصنيف أمنمويس . وهذه القائمة ، أشبه ماتكون بمذكرة موسوعية . فبعد أن تستعرض العناصر والكيانات الربانية ، تذكر الملك ، والمقرين إليه ، ورجال البلاط ، وكبار الرسميين ومعاونيهم ، ثم تنتقل إلى أسماء الكهنة ، والعمال ، والحرفيين وأصحاب المهن المختلفة . ثم تحدد أعظم الطبقات الاجتماعية وأشهر الشعوب ، وكبرى الجماعات البشرية . ولكن لا يوجد هناك رابط واضح بين هذه العناصر ، إذ ترد الألقاب الدينية جنباً إلى جنب مع الوظائف الإدارية في حين تختلط أسماء الوظائف العسكرية بمجموعات المسؤولين الاقتصاديين .

* في الأصل الأسرة الثالثة عشرة (المراجع) .

ومع ذلك ، نكتشف في هذه القائمة الطويلة بعض الحقائق التي
تأكدت صحتها بعد مقارنتها بغيرها من نصوص موزعة . فتجد أن حامل
البلاد الذي اصطلحت الآلهة ليتحدثوا إليه ، يبرز باعتباره الشخصية
الأولى في البلاد ، فيجمع بين يديه مطلق السلطات ، ويتحتم بكافة
الامتيازات ، وفي الوقت نفسه يضطلع بحجاء بلده وتجاه وعياده بواجبات
تنقل كاهله . ومع مرور الزمن ، فإن الملك يقتسم سلطاته وامتيازاته
ومسئوليته مع كبار موظفيه المدنيين والدينيين والعسكريين الذين دأب
على اختيارهم من بين أفراد أسرته . وكان هذا النمط من الحكومات
الأتوقراطية يظهر مع كل حركة إصلاح كبرى في أعقاب عصر
الإضطرابات الداخلية أو الغزوات الخارجية . وعندما يعم الرخاء وتظهر
وظائف جديدة من ناحية ، ويتضح عدم فاعلية السلطة الشرعية من
ناحية أخرى ، يتحول النظام الأتوقراطي تحولاً جوهرياً ليصبح نظاماً
شبيهاً بالنمط الإقطاعي ، فتتعاظم اختصاصات مكام الأقاليم وتوسع
على حساب السلطة المركزية . وقد فتحت مثل هذه الأوضاع الطريق أمام
عين من أعيان الريف ، أو أحد العسكريين ، أو أحد الكهنة ،
ليستولي على السلطة ويتربع على عرش البلاد ، فيعوض بفاعليته
وحزمه وهن الدولة وضعفها . إن الحقائق السابقة تلقى الضوء على
الأسباب التي جعلت قائمة أعلام أمنموهي تصنف أسماء كبار رجال الدولة
مباشرة في أعقاب أفراد الأسرة المالكة ، وربما كانت شخصية مصنف قائمة
أعلام الأنوماستيكون دواء إفساح الجزء الأكبر من القائمة أمام الجهاز
الإداري ، فجمعت بين كبار المراتب الوظيفية وأقلها شأنًا سواء بمسواء .
ومن المعروف أن أمنموهي عمل في وظيفة كاتب ينسخ الكتب المقدسة
في " دار الحياة " * . بيد أن تركيز الأنوماستيكون على الجهاز الإداري

* مؤسسة ثقافية تلتحق بالمعبد المصري ، وهي متعددة الأغراض ، ولها مكاتب لبيع التمريض
الدينية اللازمة لممارسة الشعائر ، وكان لها صفة وثيقة بالطب والسحر . (المترجم)

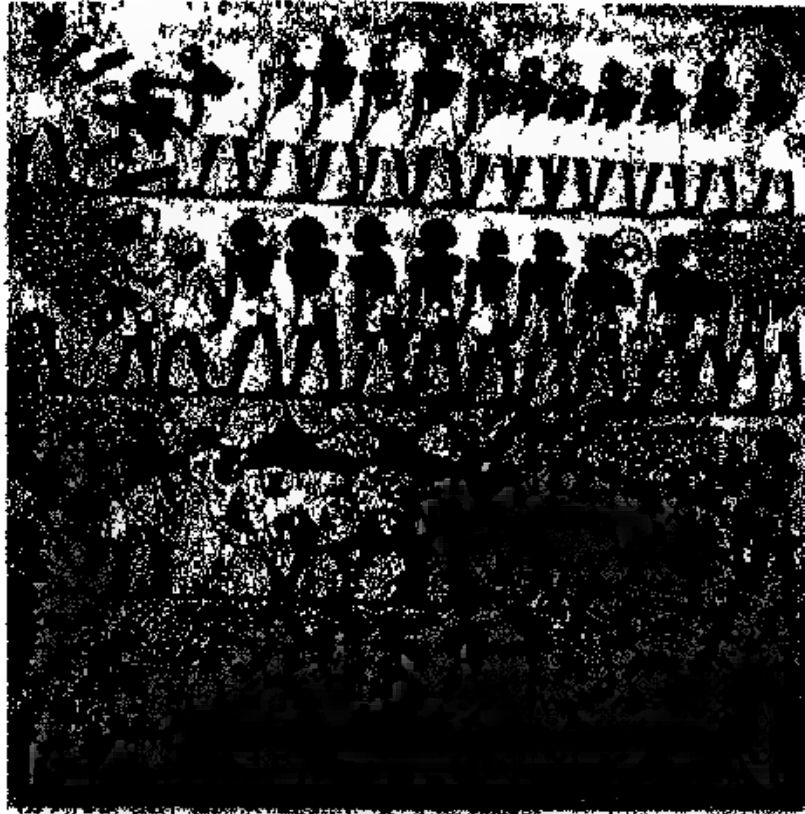
لا يتعارض مع الشواهد المتعددة التي تشير إلى تواجد هذا الجهاز في طول البلاد وعرضها وأنه ظل راسخاً مستقراً في أحلك الظروف وأكثرها إضطراباً . أما الكهنة ، فقد جاء ترتيبهم في قائمة الأعلام قبل العمال والحرفيين .

ونلاحظ هذا التسلسل في الهرم الوظيفي في وثيقة ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة . أنه مشهد تعداد السكان المصور على جدران مقبرة * ثانزى * ، الكاتب في جيش تحوتس الرابع . ويوضح المتن المدون بالخط الهيروغليفى ** أن المقصود هو أن * يشمل التعداد أرجاء البلاد وأن يتم في حضرة صاحب الجلالة ، مع عمل إحصاء لكافة

* صاحب المقبرة رقم ٧٤ بالهرم الغربي بمنطقة عفرة الشيخ عبد القرنه (المترجم)

*** عرفت اللغة المصرية القديمة ٤ أنواع من الكتابة :

- ١ - الكتابة الهيروغليفية وهي كلمة يونانية تعني الكتابة المقدسة .
- ٢ - ونشأت عنها كتابة مختصرة تعرف بالهيراطيقية أي الكتابة الكهنوتية باليونانية .
- ٣ - وقد تطورت بدورها إلى كتابة أكثر اختصاراً تعرف بالديموطيقية أي الكتابة الشعبية .
- وبلغت العلامات الهيروغليفية عدداً كبيراً في أيام الحضارة المصرية المتأخرة . وإن كان الكتاب في أيام الدولة الوسطى والحديثة كثيراً يكتبون بحوالي ٧٠٠ علامة هيروغليفية وتبلغ عدد العلامات المسكوكة لدى مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية وهي أغنى مطابع العالم - أكثر من ستة آلاف علامة هيروغليفية . (المترجم)
- ٤ - والكتابة المعروفة اصطلاحاً بإسم " اللغة القبطية " وهي اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية مع إضافة سبعة حروف ديموطيقية (المراجع) .



شكل ١ : مشهد التعداد في مقبرة " ثانوي " في طيبة .

الأحياء بمعنى حصر الجند والكهنة المطهرين * وموظفى الملك ومختلف الحرفيين فى أرجاء البلاد ، وحصر الماشية بأنواعها والطيور الداجنة والأغنام * . أما ترتيب الرسومات فيختلف اختلافاً واضحاً . فالكهنة يتصدرون الصفوف يليهم فى الترتيب موظفو فرعون ، فالجند ، فالماشية وفى نهاية المطاف الجياد . وربما اهتم الكاتب الذى دون المتن أن يندج ثانوتى لذا وضع الجند فى مركز الصدارة .

وكان من المفترض أن يشمل التعداد المشار إليه البلاد قاطبة من إنسان وحيوان . ولكن الملاحظ على ما يبدو أنه اقتصر فى واقع الأمر على أدنى الطبقات والماشية ، فحسب . إن مجموعة قائمة الأعلام التى صنفها أمنموبى ، قد ذكرت الوظائف العليا - الإدارية منها والدينية والعسكرية - دون أى ترتيب بحيث يتعذر أن نستخلص منها أى تسلسل وظيفى . إن احتلال الكهنة الآخرين مكان الصدارة بالنسبة للعامل والفلاحين ، لا يعتبر خروجاً على المألوف فى دولة يستند فيها الحكم إلى الحق الإلهى . والشئ نفسه نجده فى كتاب هيرودوت . وعلى كل حال ، كان شباب الكتبة ، يعيدون نسخ هذه النصوص ، وما يائلها من نصوص فى دور الحياة داخل المعابد .

ومن كل الملاحظات التى ترتبت على تحليلاتهم ، رغم اختلاف الموضوع ، نتج قدر بسيط من المعلومات المؤكدة حول مكانة الأفراد وفئاتهم فى المجتمع المصرى . ومع ظهور الدولة ونظمها صار كل فرد فى

* وظيفة الكهنة المطهرين نجس طهارة الحيوان ، بعد ذبحه وقبل تقديمه كقرбан . فإذا قرر الكاهن طهارة الذبيحة ، قسمت إلى أجزاء صغيرة ثم وضعت على مائدة القرابين . (المترجم)

المجتمع خاضعاً من حيث المبدأ إلى السخرة * . فيزاول عملاً محدوداً في خدمة الملك في إطار مجتمعه وطبقاً لمهاراته . وكان في سلطة الملك نقل الموظفين للعمل بالأوقاف المدنية أو العسكرية أو الدينية أو الجنائزية ، أو حتى لدى أحد الأفراد لمدة محددة أو بشكل دائم . ومع مرور الزمن إكتسبت الأمور مزيداً من المرونة .

كان المصريون منذ أقدم العصور ، يفرقون بين مختلف الأوضاع الاجتماعية لأفراد مجتمعهم . فهناك الأشراف " بحث " ** ، إلى جانب عامة الشعب أو الرعايا " رغيث " و " حنمت " . كما أن كلمة إنسان " رمتث " تدل أحياناً على أى فرد أياً كان ، كما تدل في أحيان أخرى على العامل أو الثقل . ونلاحظ أيضاً ذكر الوضع الاجتماعي للأشراف في مقدمة ألقابهم كلما سنحت الفرصة ، ولكنهم لم يشكلوا طبقة منفصلة . ولدينا أمثلة كافية لأفراد ارتقوا السلم الاجتماعي ارتقاءً حثيثاً لمجرد أن عاقل البلاد كان راضياً عنهم ويريد تقديرهم . ورغم أن حكام الأقاليم قد أصبحوا من الأشراف في عصر الأسرة السادسة ، فإن زواج ملك من الملك من إبنة أحد حكام الأقاليم كان ينال من هيبة الملكية الفرعونية . ولئن كان الملك وعائلته في ظل الدولة القديمة يتمتعون إلى طبقة الأشراف ، إلا أنهم كانوا يعتبرون في واقع الأمر في منزلة أرقى من هذه الطبقة . ولكن مع حلول الفترة الإنتقالية الأولى تم إعادة النظر في بعض سمات الحكم المطلق التي كان يتمتع بها عاقل البلاد .

* إننا لا نتفق إطلاقاً مع المؤلفة في هذا التفسير ، وذلك لأن الحضارات العظيمة لا تنهى أبداً بالسخرة ، لكنها فكرة روج لها ولاقت القبول عند البعض ، (المراجع) .
** " بحث " تأتي بمعنى الإنسان الأدنى ولكن " رمتث " بمعنى النبيل أو المنتمى إلى طبقة النبلاء (المراجع) .

إن النصوص المنقوشة على آثار الخاصة من لوحات وقنايل ومقابر وغيرها ... تتضمن - بصفة عامة - عدداً من الألقاب للشخص الواحد ، بمجرد أن يتبوأ صاحبها منصبةً ذا شأن في مجتمع عصره . ومن هذه الألقاب ما هو موروث فأوضحت ألقاباً شرقية فحسب . أما الألقاب الأخرى فتسجل ما شغله صاحبها من وظائف متعددة في آن واحد ، أو تلك التي تعاقب عليها . وجزت العادة أن يحتكر الشخص الواحد بعض المناصب الإضافية ، كما شاع الجمع بين الوظائف الإدارية والاقتصادية والدينية بل والعسكرية ، رغم انتقارها إلى رباط واضح يجمع بينها . وبشكل عام فإن وظيفة واحدة من هذه الوظائف تبرز ليكون لها الغلبة والهيمنة على غيرها . غير أن المصري غالباً ما كان يساوي بين مختلف الأعباء والمناصب ، فلا فرق عنده أن يزاول بالفعل مهنة منتظمة ، أو أن يتولى إدارة أملاك كبيرة ، أو أن يكلفه الملك أو أحد الأعيان مهمة محددة في زمن معين ، بل وأن يمارس ما درج عليه من أعمال التقوى والورع على سبيل المثال . وسوف يزداد إدراكنا لهذه الظاهرة لو عدنا إلى بعض البطاقات ، ودققنا فيما تحتويه من تفاصيل عن أفضال ومهارات صاحبها ، إلى جانب إطنابها في تسجيل مهنته الحقيقية . لقد انتشر هذا التقليد انتشاراً واسعاً عبر كل العصور ، وهو خير دليل على عدم وجود حواجز جامدة بين كبريات المراتب الوظيفية في الدولة . ومن جانب آخر فإن التعبير عن نفس المهنة الواحدة كان يأخذ أشكالاً متغيرة تغييراً جذرياً ، حسبما أراد صاحبها أن يبرز وضعه المهني بالقياس إلى صاحب العمل ، أو الطائفة التي ينتسب إليها ، أو الطبيعة المحددة لعمله .

٣ - القصور ، البلاط والمؤسسات الملكية

يتحدد مفهوم القصر الملكي ووظائفه الأساسية ، فى عصر الدولة القديمة ، فى خمس كلمات أو عبارات . إن عبارة " پر عا " أى البيت الكبير ، أكثرها شيوعاً . وقد اقترنت عادة بمعاصمة البلاد " منف " * ، وهى مقر إقامة عاهل البلاد وعائلته وخاصته . كان " بتاح شبس " من المقربين إلى أواخر ملوك الأسرة الرابعة وخلفائهم فى الأسرة الخامسة . " لقد نشأ وترعرع فى صحبة الأبناء الملكيين ، فى البيت الملكى الكبير ، وفى المقر الرسمى ، وفى حريم الملك " . وعبارة " پر عا " تتضمن أيضاً الأجهزة الإدارية المختلفة والموظفين القائمين على الخدمة اليومية للملك من أطباء ، ومصطفى الشعر والحلاقين والمستولين عن تجميل الأيدي والخدم على اختلاف أنواعهم والحرفيين . ومن الواضح أن القصر الملكى لم يتدخل فى حياة البلاد كشخصية اعتبارية مستقلة . ومن ناحية أخرى ، فقد ارتبطت عبارة " پر عا " بالملك ارتباطاً وثيقاً . حتى صارت فى آخر الأمر تشير إلى الملك ذاته ، أى " الفرعون " .

أما عبارة " شپ سا " ، ومعناها : القصر ، فلم تظهر إلا أيام الدولة الوسطى ، غير أن هذه العبارة كانت تطلق فى عصر الدولة القديمة على مقر السلطة المركزية ، وارتبطت ارتباطاً مباشراً ببعض الخدمات التى كانت تقدم للملك ، كمكتب الملك ، والحرس الملكى ، بالإضافة إلى تنقية الأوامر الملكية .

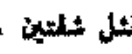
* هى " اب - حج " أى الجدار الأبيض والتى ترجع إلى عصر الأسرة الأولى وتقع أطلالها عند قرية ميت وهينة ، بمركز الهدرشين . وأطلق عليها " من نفر " فى عهد الملك ميمى الأول ، من الأسرة السادسة ، وحرفه الأغر يق إلى " مفس " والعرب إلى " منف " (المترجم) .



أما عبارة " برنيسو " ، وتعني الأملاك التابعة للقصر ، فهي مؤسسة اقتصادية يشرف عليها حاكم البلاد إشرافاً مباشراً . ويعتمد على الأملاك الملكية في تقديم الهبات والمطايا المحبوسة على الأرقاب والأفراد لا اعتبارات جنائزية ودينية في أغلب الأحيان ، ويعمل في خدمتها أعداد كبيرة من الكهنة وبعض المدنيين ولا سيما في الريف .

أما كلمة " عح " ، فتكتب بعلامة تصويرية * على شكل " مثنى " وأغلب الظن أنها ليست صورة لمحل إقامة الملك العادية ، ولكنها بنائية تقع في منزلة وسط بين الجوسق والمقصورة ، ولا يستخدمها الملك إلا في القليل النادر ، وأثناء الاحتفالات لا سيما في أعياد البوبيل ** .

ومع ذلك فقد أشار الملك " أسيس " *** ، في خطاب موجه إلى مهندس " سنجم إيب " إلى هذا الجوسق الذي أطلق عليه اسم " لوتس أسيس " . ويقصد به البناية الفسيحة المتسعة ، وكانت له اختصاصات

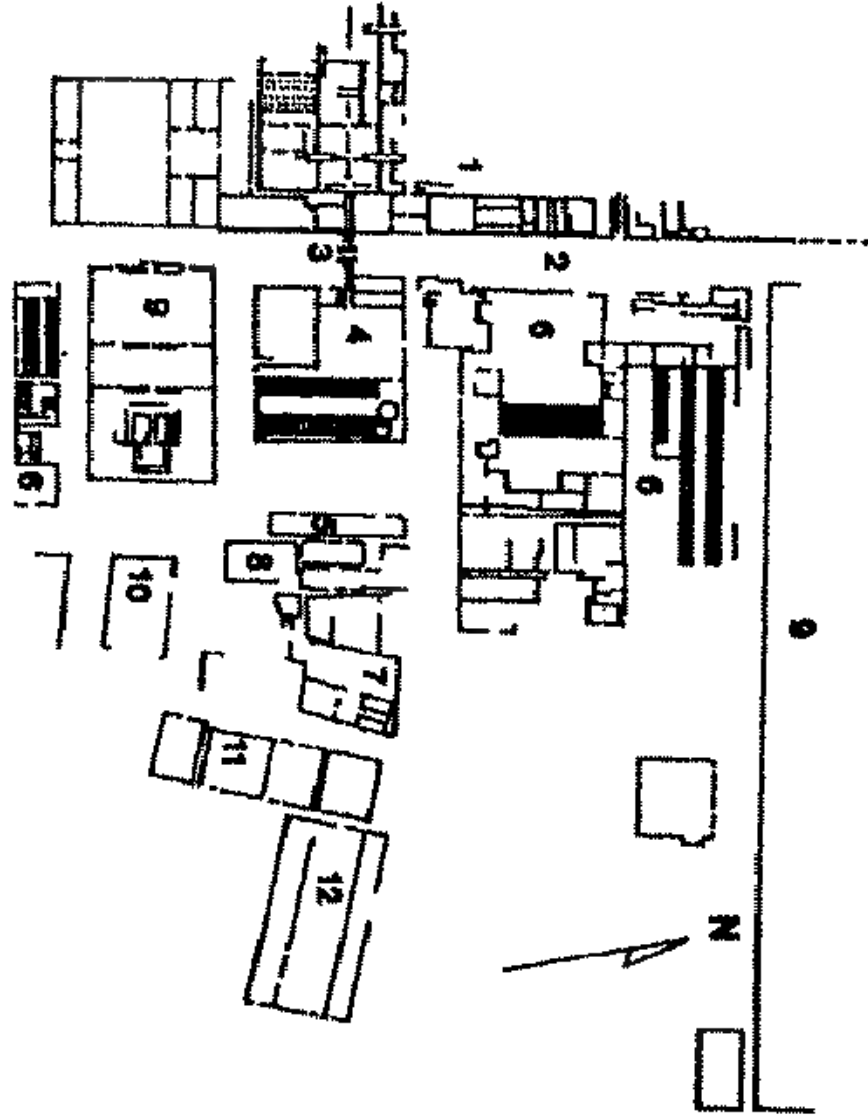
* ينهى التمييز بين نوعين من العلامات الهيروغليفية :

١ - العلامات التصويرية : تتكون من رسومات تعني إما الأشياء المرسومة ذاتها أو المعاني المرتبطة بها مثال ذلك :  وقيمتها الصوتية " را " وتمثل شفتين ، وتعني القم أو القول .

٢ - العلامات الصوتية : هي في الأصل علامات تصويرية ، ولكن تستخدم لقيمتها الصوتية دون المعنى المرتبط بها كعلامة تصويرية : ومثال ذلك  " را " وهي حرف جر بمعنى : إلى ، وإلى ، وإلى الجاه . والعلامة التصويرية عح ، تمثل رسم مثنى كالتالي  (المترجم) .

*** الحظ سد " حر " البوبيل " أو " العهد الثلاثيني " وهو الاحتفال بمرور ثلاثين عام على حكم الملك . وكان هذا الاحتفال معروفاً في مصر دون شك ، قبل الأسرة الأولى بزمان كبير ، ويتم الاحتفال وفقاً لمراسم خاصة ، يثبت فيها الملك حيويته وقوته . ثم تشيد بعض المباني الخاصة له احتفالاً بالمتناسبة وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولى وحتى آخر أيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد . (المترجم)

*** من ملوك الأسرة الخامسة ومن ألفاه : جد كا رع (المترجم) .



شكل ٢ : رسم تخطيطي يوضح مواقع المباني الرسمية في وسط مدينة تل الصاروة
 ١ - القصر وحرم الشمال وحرم الجنوب ومساكن المرتفعين . ٢ - الشارع الملكي . ٣ -
 - جسر يربط بين بيت الملك وأجنحة الحرم . ٤ - بيت الملك . ٥ - دار المحفوظات . ٦ -
 - المخازن . ٧ - الشئون الخارجية . ٨ - دار الحياة . ٩ - دور العبادة . ١٠ - مساكن
 الكهنة . ١١ - ثكنات الجيش . ١٢ - المركز الرئيسي للشرطة .

اقتصادية مرتبطة بالمقر الرئيسى للملك البلاد .

أما كلمة " غنو " ، أى " الداخل " ، فقد شاع ترجمتها بمساواة " المقر الرسمى للملك " ، ولكن دلالة الكلمة وأبعادها يتجاوزان الحدود الضيقة لهذا التعريف . أما من ناحية الاختصاصات ، فهى تفوق اختصاصات ما نسميه اليوم ، وزارة الداخلية . فهى تشمل الجهاز الإدارى ومجموع المكاتب معاً . وتفصيل أدق ، فإن " غنو " شخصية اعتبارية اقتصادية مستقلة ، ويتبع جهازها الإدارى الملك شخصياً شأنها شأن " الأملاك الملكية " . وهى تشرف على الممتلكات الخاصة والعقارات والأغنام والعاملين ، ويوجد تحت تصرفها خزائن عامة ومخازن غلال ، ويقع على عاتقها التوجيه المركزى للإنتاج فى جميع الأملاك ولا سيما الجنائزية منها ، إلى جانب مهمة تزويد الأوقاف والعاملين بها بالمؤن . فوظيفتها الرقابة على إدارة اقتصاد البلاد والحفاظ على توازنها .

نخلص من هذا العرض السريع بتركيز المهام الرئيسية فى محاور ثلاثة :

- ١ - المقر الرئيسى للملك ونفقة الأسرة الحاكمة .
- ٢ - إقام الشعائر الدينية الخاصة بالنظام الملكى .
- ٣ - مقر الحكومة .

يجرى القيام بالمهام الثلاث فى أماكن متقاربة وإن كانت مختلفة . ويتضح ذلك من ما تبقى من آثار مدينة تل العمارنة ، عاصمة * أمنحوتب الرابع * الذى اعتلى عرش مصر فى أواخر الأسرة الثامنة

* المعروف بإخناتون ، بنى لنفسه عاصمة جديدة ، المعروفة حالياً بإسم تل العمارنة فى الضفة الشرقية من النيل على مقربة من ملوى الحالية وسماها أخت آتون أى آتن (المترجم)

عشرة . ورغم معرفتنا للمهدد من التصور وملحقاتها والتي ترجع إلى مختلف العصور ، إلا أن الكشف عنها لم يتقدم بالقدر الذى يسمح لنا باستنتاج الوظائف التى كانت تقوم بالمهام المشار إليها ، فأحياناً ، كان المقر الرئيسى للملك البلاد يبتعد عن المركزين الإداريين الكبيرين للبلاد وهما منف وطيبة * ، كما حدث فى عصر الدولة الوسطى وعصر الرعامسة ** . وليس من المستبعد إذن فى هذه الظروف أن تظل الأجهزة الحكومية تعمل من هذين المركزين وتدير أعمالها انطلاقاً منهما ، أما البلاط فيذهب حيثما يذهب الملك ، ولا يتخلف كبار موظفى البلاط إلا للضرورة ، وحسب المهام التى يكلفون بها . وأضاف إلى ذلك ، لقد حدث فى فترات الحكم المطلق أن أقام كبار المسئولين فى الأقاليم مقاهيرهم فى الجبابة المجاورة للمقبرة الملكية . وبمرور الزمن تبدل بنیان المؤسسات وتغيرت أهميتها النسبية ، وأحياناً تطورت المصطلحات وتغيرت ، ولكن العمل كان يسير فى معظمه بالطريقة التى كانت سائدة فى الماضى السحيق دون تعديل . وهكذا حفظ لنا الزمن ، مثلاً ، حسابات توريد الخبز إلى المقر الرئيسى للملك بمنف ، والمؤرخة بالعام الثانى من حكم سبتى الأول .

* إسم طيبة ، إسم متأخر لمدينة الأقصر الحالية . سبقه إلى الوجود إسم (واست) ، بمعنى الصولجان . وسميت (نوت آمون) أى مدينة آمون . ذكرها الشاعر الإغريق هوميروس (القرن السابع ق . م) بإسم طيبة . ويحتمل أنه نسبها إلى معبدها الذى كان يسمى (إبهة) بمعنى الحرم أو الحرم أو المنيز . إما تسمية مدينة الأقصر ، فنرجع إلى العرب حيث أطلقوا على المدينة إسم الأقصرين وذلك لوجود معسكرين رومانيين . ثم تحولت الأقصرين إلى إسم الأقصر الحالى . (المترجم)

• عصر الرعامسة يغطى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين
 يبدأ برمسيس الأول ، أول ملوك الأسرة ١٩
 وينتهى برمسيس الحادى عشر آخر ملوك الأسرة العشرين (المترجم)

وتنتشر في أرجاء البلاد المؤسسات الملكية والدينية أو العسكرية ، إلى جانب الأوقاف الدينية أو الجنائزية للملك مصر الذين تتابعوا على عرش البلاد . ويعمل في خدمتها جيش من العاملين من مختلف التخصصات ، يخضعون لسلطة الملك من خلال ممثليه كالوزير ومديرى القطاعات الإدارية ، وقواد الجيش والمشرفين على البعثات والكتبة ، إلى آخره .. إن العاملين في المؤسسات الملكية موظفون يتلقون أجراً عينياً يستقطع من حصيلة الضرائب ، وتصرف لهم المكالآت في المناسبات كمنفعة شخصية لكل مجتهد ومجد . أما الأوقاف الدينية والجنائزية فلها جهازها الخاص من العاملين الذين تعتمد مواردهم على العوائد التي يدرها استثمار ما حبس الملك عليها من أراضٍ ومراشٍ . فبعد استقطاع الضرائب منها يتبقى لهم ما يكلى لإعاشتهم عيشة مقبولة هنية .

ويبدو أن إدارات أملاك التاج والمعابد وأعيان البلاد قد اتبعت نموذجاً مشتركاً ، إذ شاعت الوظائف المماثلة في هذه الأوساط المختلفة . وتشولى إدارة واحدة الإشراف على العديد من قطاعات العمل في الزراعة ، وتربية المواشى ، وتجميع المعاصيل وحصر كمياتها وتوزيعها ، وإعداد الطعام ، وخدمة الأسىاد ، كما تشرف على ورش النساجين ، ولجاجة الأثاث الفاخر من الأمانوس ، والأساكفة ، وصناع الأوانى ، والصياغ إلى آخره . واختصت بعض الأوقاف ، بامتيازات استثنائية ، فصدرت بها مراسيم ملكية تعفيها من سداد الضرائب للدولة ، كما أعلى كل العاملين بها من أعمال السخرة أو أى عمل إلزامى صادر من جهات خارجية أو من الأجهزة المركزية .

٣ - المعابد وملحقاتها : دور الحياة - الورش - الأهرامات

عرفت مصر الفرعونية نوعين من المعابد : المعابد التى اعتبرت
منازل للآلهة ، ثم المعابد الجنائزية التى خصصت لإقامة الشعائر للملوك
بعد وفاتهم والتى سميت فى الدولة الحديثة بـ " قصور ملايين
السنين "

لم تعد أصول الطابع الإلهى للملكية فى حاجة إلى دليل أو
برهان ، فالملك الحى يعرف بحورس ، وإذا تولى قهر أوزيريس ، وخلوده
الأبدى هو أساس توازن وانسجام العالم ، والمقصود به هنا مصر . ومن ثم
كان تشييد المعبد الجنائزى ، أمام الهرم الذى كان يسجى فيه جثمان
الملك ، حيث وضعت خمسة تماثيل على هيئة الملك المتولى . ومن خلال
الطقوس والشعائر كانت التماثيل تطهر وتلبس الثياب وتمسح بالزيت
المطهر ، وتزين وتوضع أمامها القرابين فوق المائدة المتجاورة للباب الرسمى
وبذلك يسهل على المتوفى الانتقال من عالم الموتى إلى عالم الأحياء
لتناول الطعام . كان الهرم والمعبد الجنائزى يشيدان على أرض مرتفعة .
أما " معبد المزار " * ومدينة الهرم فكان موقعهما فى الرادى على أرض
منخفضة . وهما يشرفان على استلام مؤونة المعبد الجنائزى ، وتوفير
الإقامة للعاملين وتنظيم الخدمة اليومية فى المعبد والاستعدادات الخاصة
بالأعياد . ويربط بين معبد المزار والمعبد الجنائزى طريق صاعد .

* وهو يعرف اصطلاحاً بمعبد الرادى (د. أحمد فخري : الأهرامات المصرية ص
٢٩) (المترجم) .

ومنذ فجر الأسرة الثالثة ، شيدت مجموعة جنازية فريدة في نوعها

فوق هضبة سقارة * الصحراوية احتفالاً متجدداً إلى الأبد بأعياد اليوبيل للملك زوسر . وتتكون المجموعة من مباني وهمة ، وكأنها قد أعدت بالأحرى لاستقبال جيش من الأشباح وليس فريقاً من الموظفين النشطين . ومع مطلع الأسرة الرابعة أخذت هذه المؤسسات الفسيحة ، تغطي مساحات شاسعة في دهشور ، والجيزة على وجه الخصوص . وقد وصلت إلينا محفوظات معاهد الأسرة الخامسة الجنازية في أبو صير ، وتطور أساساً حول حسابات المعاهد وهي لا تعتبر سجلاً لاقتصاديات هذه الأوقات ومكانتها في اقتصاد البلاد فحسب ، بل هي تقدم لنا صورة للحياة داخل المعاهد ونشاط الموظفين العاملين فيها . وقد اعتمدت هذه الأوقات على الإمدادات الغذائية التي توفرها لها الأملاك الجنازية التابعة للملك ، أو لغيره من الملوك ، بأمر من مقرر الملك ومعبد الشمس الخاص به . والفرص من هذه الموارد من الأغذية والمنسوجات ، هو تلبية احتياجات الملك بعد وفاته ، كما كانت تستخدم أيضاً لسد الاحتياجات الغذائية للعديد من العاملين في هذه المؤسسات .

تتضمن الخدمة اليومية في المعاهد إقامة الشعائر مرتين يومياً . وهي تنسق مع الوجبتين اللتين كان الملك المتولى يتناولهما في حياته الدنيا . ثم تزين التماثيل الخمسة ، وتقرأ الطقوس ، ويظهر المكان مرات ومرات ، ويرش بالماء . كما تشتمل على خدمة دنيوية هي إحضار القرايين وإعدادها . وتتكون هذه القرايين من بعض الطيور وعددها أحد عشر وأطيب أجزاء العجول وعدد كبير من أرغفة الخبز والجمصة إلى آخره ... كما تمتد الخدمة اليومية إلى توزيع المؤونة المقدمة للملك وأعمال

* سقارة هي جبانة منف (ميت رهينة) إسم قديم مشتق من إسم الإله " سكر " الإله الحارس لهذا المكان . (المراجع) .

حراسة المبنى ومحتوياته ، وتسجيل بيانات قسم المحفوظات . وتنقسم العاملون في المعابد إلى خمس مجموعات يباشرها خمسة رؤساء . يقوم كل منهم بالخدمة بالتناوب وفقاً لجداول مازال بعضها باقياً حتى يومنا هذا . وتنقسم كل مجموعة إلى قسمين ، ويضم كل قسم نيف وعشرين شخصاً يقودهم مسئول . وإلى جانب هذه الجماعة المنظمة ، كان يقوم على خدمة المعبد الكهنة المطهرون والحرفيون ومصنفو الشعر والفخاريون والطباخون ومنظفرو الملابس والملاحون والعمالون والأطباء والمنشدون ، بحيث يصل مجموعهم الكلى إلى ما يقرب من ثلاثمائة فرداً .

ويحتشد جمع كبير في مقاصير مقابر الأفراد حول المجموعات الجنائزية الملكية ، ومهمتهم توفير القرابين لرجال البلاط وكبار الموظفين وعائلاتهم . وكثيراً ما تستقطع هذه القرابين من القرى التي يقدم للمعبد الملكي المجاور . وقد يتمتع الأفراد الذين فضلهم الملك وقرّبهم إليه بنوع من الإيرادات للحصول على الأطعمة اللازمة لهم بعد وفاتهم ، ودفع رواتب " خدام الكا " * المكلفين بهذه الشعائر . وقد تأتي هذه الإيرادات ، شأنها شأن موارد المعابد ، في استثمار الأملاك الجنائزية المنتشرة في أرجاء البلاد .

أما معابد الرعامسة الجنائزية في طيبة ، فكانت في منزلة تجمع بين المعابد الجنائزية في الدولة القديمة والدولة الوسطى من ناحية ، والمعابد الإلهية من ناحية أخرى . إن الرسم التخطيطي الذي شيدت على أساسه هذه المعابد شبيه بالرسم التخطيطي لمعابد الآلهة ، كما تضم قصراً مصغراً ، لا غنى عنه لاحتفالات اليوبيل وغيرها من الاحتفالات التي تقام داخل الحرم المقدس . وإضافة إلى ذلك ، كانت المعابد تحمل مراكز

* وهم خدم تماثيل القرين (المراجع) .

اقتصادية هامة ، ومثال ذلك الرامسيوم * ، ومراكز إداوية كما هو الحال بالنسبة لمعبد مدينة هابو *** .

وكانت المعابد الإلهية الكبرى أيضاً مركزاً لمؤسسات شاسعة متنوعة الاختصاصات . لقد اختص كل معبد ذو شأن ، بقصة للخلق كما تخيلها كهنته ، منذ أقدم الأزمنة . وشيدت هذه المعابد في نفس المكان الذي ولد فيه العالم طبقاً لهذه القصة . ويفضل المحفوظات المحلية والنصوص المنقوشة على الجدران ، عرفنا هذه الأحداث التي وقعت منذ الأزل . فالشعائر اليومية والشعائر التي تقام في مواسم محددة تكريراً للآلهة المحليين الرئيسيين في كل مكان ، تسير طبقاً لطقوس قريبة الشبه بتلك التي كانت تستهدف ضمان خلود الملك المتوفى . إذ يحل تمثال الإله محل تمثال الملك ، ويقع حبيس النايوس *** في أعماق المعبد ، ولا يحق لأحد أن يفتح أبواب النايوس إلا أعظم الكهنة مرتبة . إذ لا يجوز لغيرهم الدخول إلى هذا المكان الذي يعتبر أكثر أماكن المعبد قدسية . ويشرف الكهنة على تزيين التمثال واللباس ووضع الخلى من حوله وإطلاق البخور وتقديم أشهر الأطعمة الطازجة بينما ترتفع أصواتهم بثلاوة الشعائر المقدسة اليومية . وفي نفس الوقت تجرى مراسم أخرى في أجزاء المعبد المختلفة ، كتقل التمثال أو مركب الإله والطواف به فوق سطح

* الرامسيوم . معبد شيدته رمسيس الثاني ، في البر الغربي من مدينة طيبة . (المراجع) .

** معبد مدينة هابو . شيدته رمسيس الثالث ، في البر الغربي من مدينة طيبة . (المراجع) .

*** هي مقصورة لها باب يفتح ، تحتوى على تمثال للإله الرئيسي للمعبد . (المراجع) .

المعبد ، أو خارجه * ، وتصدح الموسيقى وتتلئ أناشيد الطقوس ،
وتعرض الأسرار الدينية ، وتجري أعمال الكهانة وقراءة أحوال الغيب ..
وتتولى جماعات الكهنة بالتناوب أداء هذه المهام ، كل حسب كفاءته ،
وحسب درجة علمه الرباني ، يعاونهم فى بعض هذه الممارسات بعض
الأفراد غير المنتمين إلى السلك الكهنوتى الذين يتم اختيارهم من أعيان
المنطقة التى يقع فيها المعبد .

وتنكب ثقات عديدة من الكهنة على أداء فرائض الشعائر اليومية
ويقومون بهذا الدور الكهنوتى تلبية عن الملك ، ولكن عندما يعهد إليهم
تنفيذ مهام أساسية أخرى ، فإن ذلك يتطلب قدراً كبيراً من البراعة
والفن والقدرات الذهنية المتميزة . ومن هذه الأعمال نسخ وتحرير الكتب
المقدسة فى " دور الحياة " . لقد تخرج من هذه المؤسسات أجيال وأجيال
من الكتبة الذين تدربوا على نسخ المؤلفات الدينية والدينية القديمة ،
وتصنيف وثائق جديدة ، والبحث فى المخطوطات المقدسة عن وصفات
طبية وسحرية وطلاسم فلكية . كما كانت هذه المؤسسات مركزاً لتعاون
العلماء على اختلاف مشاربهم . وقد سبقت هذه المؤسسات مثيلاتها من
أديرة القرون الوسطى فى الغرب الأوروبى ومهدت لقيامها . وعلى
مسافة غير بعيدة من " دور الحياة " ، كانت تقام معامل علمية تضم
المختصين الذين تفرغوا لاختراعاتهم أو لصناعة العطور والدهون
والتماويذ .

* والطواف بالمركب إلى وقتنا هذا - هو من مراسم الاحتفال بمولد سيدى يوسف
أبو الحجاج بمدينة الأقصر (المراجع) .

قبل تسجيل مستوى الفيضان الذى تتوقف عليه وفرة المحاصيل . ويوثق الملك جل اهتمامه بين المظاهر الرمزية للنظام الملكى وعلامات الوجود والتقوى وبين إدارة اقتصاد البلاد والدفاع عن حدود المملكة . ويتم تسجيل المراسيم والخطابات المعيرة عن الإرادة الملكية على النصب أو اللوحات الحجرية ، وعلى جدران مقابر رجال البلاط . ويلاحظ أن زوسر ونب كاور ، وملوك الأسرة الرابعة سنفرو وخوفو وخفسرع ، صاروا أبطال القصص الأدبية ، وكانوا يسعون وراء المتع الذهبية بدرجات متفاوتة . إن نبؤات نفرتى والتي تم تأليفها فى زمن لاحق ، وفى عهد الدولة الوسطى بالتحديد ، تقدم عرضاً لأصول السلوك المتحضر فى البلاط الملكى :

* فى أيام صاحب الجلالة الملك البار سنفرو - له الحياة والرفاهية والصحة * - الذى اشتهر بكرمه فى طول البلاد وعرضها ، حدث ذات يوم والملك جالس فى قصره أن دخل عليه موظفو البلاط لتقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم انصرفوا حسبما اعتادوا كل يوم . وهم جللته - له الحياة والرفاهية والصحة - فقال لأمين خزانة المملكة الراقف بجسواره : " هيا ، استدع موظفى البلاط الذين انصرفوا لتوهم بعد أن قدموا فروض الطاعة " . ومثل الموظفون ثمانية بين يدي الملك . " وانتهطحوا ثانية على الأرض فى حضرة الملك ... " (نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم :

G. Lefebvre : Romans et Contes égyptiens, Paris , 1949 , P. 96 - 97 .)

* عبارات تترن عادة بأسماء الملوك وكل من كرمه الآلهة .

أما قصة سنوحى - فتتوخى مزيداً من الدقة عندما تصور أحداثاً
معاصرة للأسرة الثانية عشرة :

حضر عشرة رجال ، وأنصرف عشرة رجال . ورافقونى إلى القصر .
ولست بجهتى الأرض بين قنايل أبى الهول . وكان الأبناء الملكيون فى
انتظارى عند المدخل لاستقبالى . أما أصدقاء الملك الذين سبقونى إلى
البهو الملكى فقد أرشدونى إلى الجناح الملكى الخاص . حيث وجدت
جلالته جالساً فى المحراب ، على عرش من الألكتروم * . فانبطحت
أرضاً على بطنى ، وغبت عن وعى .. "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم
G. Lefebvre , O.C., P. 21)

عرفت الأسرة الثانية عشرة منذ الأجيال اللاحقة بفطنة ملوكها ، وبما
تحلوا به من خصال حميدة . ونسبوا إليهم الفضل فى تأليف أسفار فى
الحكم . وسواء أكان ذلك حقيقة أم من نسج الخيال ، فقد ساد الاعتقاد
أن كل ملك يؤلف سفرًا من هذه الأسفار كان يورثه لخليفته ، ثم يتواتر
السفر عبر الأجيال من بعده .

إن الصورة التى تركها لنا ملوك الدولة الحديثة عن أنفسهم فتتمثل
القادة العسكريين الذين كللت هاماتهم بالأمجاد ، والذين يقودون قواتهم
من نصر إلى نصر . فنراهم وهم يقدمون إلى الآلهة ثروات البلاد
المفتوحة ، أو يتقبلون الجزية من زعماء الدول المجاورة المغلقة ، أو
يوزعون الهدايا السخية على أفضل خدام الدولة فى احتفالات مهيبه .

* الإلكتروم : الإسم الذى أطلقه اليونانيون على سبيكة من الذهب والفضة
(المترجم) .

كان الكثير منهم مشرّعين ، فاشتهر حورمحب وستى الأول ورمسيس
الثانى بإصلاحاتهم . وذاعت شهرة أمنحوتب الرابع بفضل تصوراته ذات
النزعة الطبيعية والتي تركت أثراً عظيماً فى مفاهيم الفن والأدب فى
نهاية الأسرة الثامنة عشرة .



يرتبط منصب الوزير وكبار الموظفين ارتباطاً وثيقاً بمكانة الملك فى
إطار حكومة البلاد . ولذا ، وسبب افتقارنا إلى التراجم الذاتية
الدقيقة ، يتعذر علينا فى المعتاد تحديد مسئولية كل منهم تحديداً
واضحاً . فمنصب الوزير يقابل منصب رئيس الوزراء فى العصر الراهن ،
أى أنه كان رئيس الجهاز التنفيذى . إن وجود هذا المنصب أمر مؤكد منذ
مطلع الأسرة الرابعة ، بيد أنه لا يمكن استيعاد وجوده قبل ذلك العصر .
وأثناء الدولة الحديثة تزايدت مهام الوزير حتى أثقلت كاهله ، فظهر
منصب وزير الوجه البحرى إلى جانب وزير الوجه القبلى . وكانت
مسئولية الوزير هى تسيير الأمور فى أرجاء المملكة . كان عاهل البلاد
يختار الوزير من بين أقرب المقربين إليه ، بل ومن بين أفراد أسرته .
ولقد وصلتنا العديد من التراجم الذاتية التى تمتدح كفاءة الوزراء المتوفين
ومآثرهم . وكانت مقبرة * رخمى ربح * ، معاون تحوتس الثالث
وخلفائه ، هى المقبرة الوحيدة التى احتفظت بمشاهد اعتلاء الملك عرش
البلاد . وإلقاء خطابه بهذه المناسبة ، وقد فصل الخطاب واجبات الوزير
الذى يشغل الوظيفة الأولى فى الدولة ، مع تصوير مختلف الأنشطة
التي يشرف عليها ، وتدوين كافة الشروح اللازمة .

* وهو صاحب المقبرة رقم ١٠٠ فى الحوزة العليا بهجانة شيخ عبد الترنه بطيبة
الغربية ، وكان رخمى ربح حاكماً لمدينة طيبة وتولى الوزارة فى أواخر أيام تحوتس
الثالث والسنوات المبكرة من حكم ابنه أمنحوتب الثانى (المرجع) .

وتجربى لقاءات الوزير اليومية مع كبار المسؤولين فى الدولة فى مكتبه عندما يكون فى العاصمة . وهذه المقابلات تسير وفقاً لتقليد ثابت لا يتغير :

" فيجلس (الوزير) على مقعده وفوقه وسادة ، بينما الأرض مغطاة بالحصير ، وفوق رأسه مظلة ، وتحت قدميه وسادة أخرى ، ويسك بعضا فى يده . وتصف أمامه مفتوحة قراطيس الرق الأربعين ، ويقف أعضاء * مجلس الشيوخ العشر فى الجنوب * * على الجانبين وفى مواجهته . أما إلى يمينه فيقف خادمه الخاص ، بينما المشرف على الإيرادات يقف على يساره ، وكتبة الوزير على مقربه منه ، وفى إمكان كل منهم أن يحدث الآخر (١) والواقع أن كلاً منهم يقف فى المكان المناسب . يستمع الوزير إلى من يحل عليه الدور ، ولا يسمح لأخر أن يتحدث قبل الشخص الذى حلّ عليه الدور .. "

بداية يتسلم الوزير أختام الحجرات المحصنة ويشرف على فتحها . ثم يحاط علماً بالأوضاع فى قلاع الشمال والجنوب . وتعرض عليه مصروفات وإيرادات الأملاك الملكية وأراضى المقر الرسمى لعاهل البلاد . ويقدم مدير الشرطة ورؤساء المراكز تقاريرهم إليه ، ثم يتجه إلى القصر الملكى لتقديم قروض الولاء للملك ، ومقابلة مسئول الأختام ، ليتباحث معه فى إجراءات الأمن الخاصة بفتح جميع أبواب الأملاك الملكية التى تجرى مرتين فى اليوم . وينجز الوزير كل هذه الأعباء فى صدر النهار .

* تتم اختصاصات هذا الجهاز إلى أرجاء البلاد ولا يختص بالجنوب فقط كما قد يرحى بذلك الاسم . وتتكون من كبار الموظفين الساهرين على تنفيذ الإدارة العليا للبلاد . (المترجم) .

ومن اختصاص الوزير وحده ، محاكمة كبار الموظفين بشأن التهم التي يوجهها إليهم زملاؤهم ، كما يختص بالفصل في الدعاوى الداخلية الخاصة بالأموال الملكية . كما يحق لأي موظف ، سواء أرفعهم مرتبة أو أقلهم شأنًا ، أن يشل بين يديه طالباً النصيح والإرشاد . وهو يقوم بتسجيل الهيات وعقود البيع أو القسمة ، ويفحص العرائض والمظالم الخاصة باستثمار الأرض ، ويأمر بقطع الأشجار في أملاك الملك عند الضرورة ، ويقرر بناء السدود ، ويقف على أوضاع شبكة الري في البلاد ، ويسهر على حسن توزيع المياه على الحقول والمزارع ، ويصدر التعليمات إلى حكام الأقاليم ورؤساء الأملاك في أوقات الحصاد . وهو الذي يحدد الدوائر الزراعية والمراعى في كل إقليم ، كما يتولى الإعلان من قدوم الفيضان وهدء السنة الجديدة بعد أن يستطلع شروق نجم الشعرى اليمانية . وفي احتفال ضخم مهيب ، يتقدم الرسل القادمون من أرجاء البلاد إليه لتسليم الضرائب ، ويشل بين يديه دافعوا الجزية من أنحاء الإمبراطورية . وهو الذي يعين الموظفين وينظم تجنيد قوات الحرس الملكي ، ويرسل المندوبين إلى المسئولين المحليين لتنفيذ المراسيم الملكية وإبلاغ تعليماته إلى أركان حرب الجيش .

وما لا شك فيه ، أن الوزير غير مكلف يومياً بمعالجة كل هذه القضايا أو إنجاز جميع هذه المهام ، إنما هي موزعة على مدار السنة ، وكل ما قصدناه هو تقديم عرض موجز بالمسئوليات التي كان يضطلع بها الوزير رخمى رع . ومن المشاهد الأخرى بمقبرته نراه في جولة تفقده في مخازن أملاك آمون وورشه . ومن ناحية أخرى ، نعرف أنه كان المسئول شخصياً عن إعداد مقبرة عاهل البلاد ومتابعة تقدم العمل في الإنشاءات الملكية الكبرى . كما يحضر الاحتفالات الملكية العظمى ويشترك في الأعياد الدينية وما شابه ذلك . ومن هنا نشأت الحاجة إلى جهاز إدارى ضخم متعدد الاختصاصات ليعاون الوزير في أعبائه الضخمة .

٢ - الموظفون

من غير الوارد هنا أن نتناول ولو بشكل مقتضب أمثلة مختارة لأكثر الوظائف ثقلًا للجهاز الإداري في العاصمة أو في الأقاليم . وحسبنا أن نعطي الكلمة ولو لبرهة وجيزة لأحد كبار موظفي الأسرة السادسة الذي وصل في سلم الترقى إلى منصب حاكم إقليم وحاكم الجنوب . ثم نتناول بالبحث وظيفة الكاتب المصري ، أحد ركائز الجهاز الإداري ، فندرس ولو بشكل جزئي المهام التي كانت ملقاة على عاتق هذا الموظف العام . لقد بلغت هذه الوظيفة درجة فائقة من التنظيم الذي حماها من التقلبات والأزمات التي لحقت بالنظام الملكي ، وظلت صامدة أمام الغزوات الكاسحة .

سبق أن أشرنا إلى " ونى " كبير موظفي القصر ، عند الحديث عن المسئوليات الجسام التي كلفه بها پيبي الأول * حين نصبه على رأس جيشه . ويرى لنا " ونى " كيف ارتقى درجات السلم الوظيفي ، كما يبرز أهم مراحل حياته الوظيفية قائلاً :

" عندما كنت غلاماً ما يزال يتمنطق بالزئار ، شغلت وظيفة رئيس مخزن في عهد صاحب الجلالة تيتي . ثم عينت كبيراً لموظفي البيت الكبير (...) ثم كاهناً مرتلاً وكاهناً أولاً بالقصر الأزلي ، في عهد صاحب الجلالة پيبي . ثم رقائى جلالتة إلى منصب الصديق وكبير كهنة مدينة هرمه (... وعيننى جلالتة) قاضياً في مدينة نحن ** إذ كنت

* پيبي الأول هو ثاني ملوك الأسرة السادسة وأحد ملوكها العظام . (المخرجه)
** قامت على أطلال نحن القديمة قرية الكوم الأحمر الحالية ، شمال أديس
(المراجع) .

محل ثقته ، فاشتركت بمفردي مع الوزير في الفصل في القضايا الخاصة
بشئون الملك والحریم الملكي ومحكمة الستة (...) وعندما كنت قاضياً
في مدينة نخن عينني جلالة صديقاً أواحد وكبيراً لموظفي البيت
الكبير . وجرت محاكمة سرية في الحریم الملكي للزوجة الملكية وصاحبة
الخطرة الكبرى . وكلفني صاحب الجلالة بالفصل في القضية وحدي ،
دون معاون قاضي أو وزير أو عين من الأعيان ... بل حكمت فيها
بمفردي * (...) .

وهنا نصل إلى الفقرة التي سبق الاستشهاد بها (ص ٢٤ - ٢٧)
فقد خرج " ونى " على رأس الجيش الذي تم تجنبه لصد الغزاة القادمين
من آسيا . ونظراً لنجاحه كلفه ييبي الأول خمس مرات على التوالي
بإعداد القوات اللازمة لمحاربة نفس الأعداء . فعاد قواته إلى النصر
الحاسم . وعند عودته إلى البلاط الملكي كانت في انتظاره مهام جديدة
جسام :

وإذا كنت مشرفاً بالقصر الملكي وحامل النعال ، قسام سيدي ، مري
ان رع ** ، ملك الوجه القبلي والوجه البحري - فليحيا إلى الأبد -
وعينني حاكماً مشرفاً على الوجه القبلي في جنوبي " إلفنتين " ***

* تخلص ييبي الأول من زوجته الملكية وقدمها للمحاكمة لأسباب لا نعرفها . وقد
عاونته " ونى " في تنفيذ رغبته لنال الثقة الغالية . (المراجع) .

** إن ييبي الأول وهو أحد ملوك الأسرة السادسة العظام وقد مات في سن
مبكرة (المراجع) .

*** الفتن - بيرة أسوان وكان اسمها إهام الفراعنة " أبر " ومعناها مدينة
الليل (المترجم)

وحتى شمال أطفيسح * (...) وانجزت كل ما كلفت به من أعمال . وقمت مرتين بجره جميع أملاك المقر الملكى فى صعيد مصر . وكانت بحاجة إلى الجرد . كما قمت أيضاً بحصر جميع الوظائف التابعة للمقر الملكى والتي كانت بحاجة إلى حصر . وشكلت هيئة إدارية لذلك ، فكان لحاجاً بآخر فى صعيد مصر (...) وأرسلنى صاحب الجلالة إلى " إيهيت " ** لإحضار تابوت الأحياء أو " رب الحياة " بخطائه والهرم النقيص الجليل المخصص للهرم المسمى " مرى أن رع يشرق فى كماله " . كما أرسلنى صاحب الجلالة إلى الفتين لإحضار الباب الرهمنى وعتبة الباب والعتب العلوى والمناريس ، وكلها من الجرانيت ، إلى جانب الأبواب والبلاط الجرانيتى اللازم للحجرة العلوية لهرم " مرى أن رع يشرق فى كماله " . وأبحرت شمالاً ، قاصداً هرم " مرى أن رع يشرق فى كماله " على رأس أسطول من السفن يضم ستة صنادل وثلاث سفن مسطحة ذات شراع مربع وثلاثة مراكب . كما أرسلنى صاحب الجلالة إلى " حنوب " *** لإحضار مائدة ضخمة من الأليستر الذى تشتهر به هذه المنطقة . كما أرسلنى صاحب الجلالة لشق خمس كنسرات فى صعيد مصر **** كما ذهبت إلى " وارات " حيث خشب السنط، لصناعة ثلاثة قوارب وأربع سفن مسطحة ذات شراع مربع " وقد قام الأمراء الأجانب فى كل من إوتت وارات وإيام ومدجا بتقديم الأخشاب اللازمة . " (النص الفرنسى نقلاً عن

* أطفيسح ، كانت عاصمة الإقليم ٢٢ من أقاليم الوجه القبلى ، وتقع جنوب مدينة الصف . كان اسمها القديم " تپ إس " وتقع فى العصر القبطى ، وهو أصل اسمها الحالى (المترجم) .

** معابر إيهيت بالنوبة (المترجم) .

*** تقع شرق النيل ، جنوب شرقى تل العمارنة . وتعنى دار الذهب أو قصر

الذهب (المترجم) .

**** عند الهندك الأول لتيسير الملاحة (المترجم) .

Rocatti , la Litterature historique Sous l' Ancien Empire , Paris , 1982 . P. 191 - 197) .

شغل " ونى " مختلف المناصب على امتداد حياته الوظيفية . فتقلد على التوالي ، أو فى آن واحد ، مناصب إدارية داخل القصر ، أو قضائية فى الأقاليم وذلك فى بداية الأمر ، ثم فى البلاط الملكى . كما تبوأ المناصب العسكرية ، ثم عاد إلى المناصب الإدارية ولكن على صعيد أرقى ، كمعاون مباشر للملك ، ووزيره فى صعيد مصر . وأخيراً وقع عليه الاختيار لإعداد مقابر الملوك الأربعة الذين خدم فى عهدهم . وهى مهام لم يكلف بها إلا من تحلى بالأمانة . فقد كان " ونى " أهلاً للثقة الكاملة .

* *

يتضمن برنامج تدريب الكاتب مجموعة نصوص دعائية ونماذج خطابات وحسابات . ومع حلول الدولة الحديثة ظهرت مؤلفات مستوحاة من كتاب " هنجو المهن " ، مع تطوير الناحية الإبداعية فيه . لقد استهدفت هذه المؤلفات تمجيد مهنة الكاتب من خلال تشبيط همم الشبان المتطلعين إلى اختيار مهن أخرى غير مهنة الكاتب ، والعمل على إحباط مسعى الكتبة الراغبين فى تغيير مهنتهم . وإن إصرار هذه المؤلفات فى عناد على بلوغ هدفها ، ليشير الشكوك والارتياب ، لا سيما لما نلاحظه من إنتشار موضوع أدهى آخر انتشاراً واسعاً . يتمثل فى خطابات تأنيب وهمية موجهة إلى الكتبة المتكاسلين .

إن الصيغة التقليدية لهذا النوع من الأدب تبدأ بالأمر القاطع :
" كن كاتباً " ، إلى ذلك قائمة طويلة تبين بالتفصيل المساوىء والأضرار
التي تنتظر كل غلام يرتكب حماقة اختيار مهنة أخرى غير مهنة
الكاتب . ويدور الحديث حول مختلف المهن التي يمكن أن يتصورها
عقل ، عدا مهنة الكاتب بالطبع ، وظهرت نسخة منقحة في هذا النوع
الأدبي ، كانت أكثر لطنة في نغمتها . حيث تلقى عند حد التأكيد بشكل
عام على مزايا وظيفة الكاتب لأصحاب التكوين الجسماني الرقيق :
" كن كاتباً . فبشرتلك ناعمة ومساعدك يصاب بالإعياء (بسرعة)
لا تحترق كما تحترق الشمعة على غرار من تداعت قواهم الجسدية . إن
عظمتك طرى . . أنت طويل ونحيف ، فإذا أقدمت على جر الأحمال أو
رفعها .. خارت قواك ، إلخ .. "
بينما تتمحور تصوص أخرى مباشرة حول المزايا المادية لوظيفة الكاتب

وامتيازاتها :

" أقدم لك النصيح والإرشاد على المستوى الذهني وعلى المستوى
الجسماني ، حتى (تتمكن) من الإمساك بلوحة الكتابة بيسر
وسهولة ، وكى تكتسب ثقة الملك ، فتفتتح أبواب خزانته ومخازن
غلاله ، فتتوفر لك إمكانية تقديم القرايين في الأعياد والمراسم . وترتدى
الملابس الفاخرة وتقتنى الخيول ، بينما يرسو قاربك عند شاطئ النهر .
وسوف تسير في الطرقات في حماية فرقة من الحرس ، وتتحرك بحرية
أثناء جولاتك التفتيشية . سوف تقطن داراً جميلة في المدينة ،
ويختارك عاهل البلاد في منصب مرموق ، ويلتف الخدم والخدامات من
حولك ، ويتقرب منك العاملون في الريف والحقول التي تشرف على
استصلاحها ، فيصافحونك وعلامات البشر والسعادة على وجوههم .
" إنصت إليّ ، إنى جاعل منك موظفاً من موظفى " سلك الحبيسة .
" اتقن ماتنسخه ، فتعفى من الضرائب وتصبح قاضياً
مرسوماً (...) . "

إن وظائف الكاتب متعددة ومتنوعة ، حسب الجهة التي تستخدمه ، سواء كانت قطاعاً عاماً أو قطاعاً خاصاً . فيعمل في إحدى المدن أو ينتقل إلى الريف ، أو يقيد على قوة إحدى المؤسسات ، أو يندب للعمل في إحدى الحاميات العسكرية في أطراف البلاد . ورغم ذلك فإن هذه الوظيفة تنطوي عادة على قدر كبير من المسؤوليات الجسام التي تضع صاحبها فوق مستوى عامة الناس ، وتفتح أمامه آفاقاً رحبة لمستقبل زاهر باسم . " فالترقى هدف كل منا " ، ولا جدال أن معرفة القراءة والكتابة والإلمام بالحساب والقوانين تعطي صاحبها سلطاناً على الجماهير التي يغلب عليها الجهل والامية . ولا يشترط بالضرورة حتى يصبح المرء كاتباً أن ينتسب إلى عليقة القوم في المجتمع المصري . ويكشف لنا فحص الأنساب عن وجود عائلات بأكملها توارثت وظيفة الكاتب . ونذكر على سبيل المثال عائلة الذين سجلوا محفزمات " قبر فرعون الجليل ، العظيم للملايين الستين " في العام السادس عشر من حكم رمسيس الثالث وحتى العام العشرين من حكم أمن إم أوبت * .

أى ما يقرب من مائة وخمسين سنة تعاقب خلالها على هذا المنصب سبعة أفراد كانت مهمتهم تسجيل العاملين في الوقف الملكي ، ومتابعة سير العمل ، وحصر المواد المرسلة للوقف لاستخدامها في أعمال التشييد ، والآلات ، وكذلك الأجور العينية على هيئة غلال والتي كانت تسلم مع مطلع كل شهر ويجرى تدبيرها بمعرفة الأجهزة المركزية ، كذلك تسجيل المراسيم القضائية الصادرة في قرية دير المدينة . حيث يقطن العاملون ورؤسائهم ، ويراصلون عملهم في هدوء مادامت الحكومة تحافظ على الأمن والاستقرار ، وتضمن رخاء نسبياً في أرجاء البلاد . ويستعين

* أمن إم أوبت : أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذين حكموا في صان الحجر (تانيس) (المترجم) .

الكاتب بكتابين آخرين مسئولين عن الجماعات المعاونة (سحدت) فى فرق العمال ، وعن الإمدادات اليومية التى تتسلمها هذه الفرق . وكان من صميم اختصاص كاتب الجبانة كتابة المراسلات المرفوعة إلى الوزير أو إلى الملك ، إذا اقتضى الأمر ، أو إلى السلطات الإقليمية . كما كان مسئولاً عن تدوين التقارير وغيرها من وثائق رسمية . فعندما اجتاحت الاضرابات الجماعات العمالية بعد أن تكرر وقف صرف أجورهم العينية . تولى الكاتب مفاوضة المسئولين . ولما بدأت العصابات المسلحة تجوب الريف ، وتزايدت أعدادها قعائت فى الأرض فساداً . وعجزت السلطة المركزية عن التصدى لها لانشغالها بواجبات تقتضيها الضرورة القصوى ، أخذ كاتب الجبانة يحل محل السلطات المركزية فى هذه المهمة ، على الصعيد المحلى فى أول الأمر ، ثم امتد نفوذه ليشمل مناطق بأسرها . فقد لجأ هو وقرقة محدودة ، إلى معبد رمسيس الثالث الجنائزى * ، واحتسب وراء أسواره الحصنة ، وحول المعبد إلى إدارة مركزية حكومية تشرف على المنطقة بأسرها وكان يباشِر أعماله من مكتب جدير بوظائفه الجديدة ، فكان ينتقل إلى القرى والأماكن الواقعة جنوب البلاد لتحصيل الضرائب اللازمة لتسيير أمور مؤسسات مدينة طيبة وعلى الأخص دفع أجور الموظفين . وقد يختار أحدهم للقيام بمهام جسيمة . فيضطر إلى السفر إلى مصر الوسطى وإلى النوبة جنوباً حيث كان الجيش المصرى يواجه صعوبات فى الدفاع عن الحدود الجنوبية للبلاد . وكان اختياره لهذه المهام يتم رغماً عن أنفه حيث أفصح فى مراسلاته عن نفوره من كثرة الأسفار والترحال .

* معبد رمسيس الثالث ، بمدينة هاور ، غرب طيبة ، هو أكبر ما حفظ من المعابد الجنائزية . كما أنه المعبد الوحيد المحصن . وتبلغ مساحته حوالى ٦٤ . ٠٠٠ م^٢ (٢٣٠ × ٢٠٠) متراً أى أكثر من ٩٥ فداناً (د . محمد أنور شكرى . العبارة فى مصر القديمة ١٩٨٦ . ص ١٢٩ و ٤٢٢) (المترجم) .

٣ - العمال والحرفيون

إن التمييز بين عامل متخصص وحرفي وفنان لا يرتكز إلى وجود مؤسسات تجمع كل فئة على حدة ، وإنما كانت بعض المهن تساعد ، أكثر من غيرها ، على إبراز مهارات أصحابها وقدراتهم . فإن عملاً مثلاً في بلاط الملك ، أو في ورشة أو في الإنشاءات التي تهم الملك بشكل خاص ، تكون فرصتهم في التميز أكبر وأعظم ، ومن ثم تكون الترقية من نصيبهم مكافأة على اجتهادهم . فنرى " مري پتاح عشق مري رج " ، المدعو " نخبر " * ، قد بدأ حياته كبناء عادي ، ليصبح فيما بعد المعماري المفضل عند بيهي الأول :

" بدأت عملي عند جلالتہ كبناء عادي . ثم عينني جلالتہ مفتشاً على البنائين ، فمشرقاً عليهم . ثم رئيساً لمجموعة ، ثم رقاني جلالتہ إلى لحجار وبناء تابع للملك . ثم عينني صديقاً أوحده ، ولحجاراً وبناء ملكياً في الإدارتين (...) وعندما ، اصطحبت أخى ، رئيس أعمال الإنشاءات ... كنت أتولى أعمال الكتابة وأحمل لوحة الكتابة . فلما عين أخى مفتشاً على البنائين حملت له عصا القياس (١) . ولما عين رئيساً على البنائين ، كنت (رفيقه) الثالث . ولما عين لحجاراً وبناء ملكياً ، كنت أدير أملاكه نيابة عنه . وألحوزت كل شيء على خير ما يرام . وعند تعيينه صديقاً أوحده ، ولحجاراً ، وبناء ملكياً في الإدارتين ، أشرفت على حسابات كافة الممتلكات ، وكثرت المقتنيات التي في داره ، وفانت مقتنيات أى عين من الأعيان . وبعد تعيينه رئيساً لأعمال الإنشاءات كنت أنوب عنه في مختلف الأعمال بما يرضيه ، فأشرفت على إدارة أملاكه البنائية على امتداد عشرين سنة (..) . وعينني صاحب الجلالة مديراً .. وعملت بما يرضى جلالتہ في الوجه القبلى وفى

* سجل نخبر هذا النص في مقبرته في الجزيرة (المترجم) .

الرجه البحري . وكلفني جلالتہ بتابعة (أعمال) مقصوده الجساترية
في الدلتا (...) ، كما كلفني بتحديد مسار قناة حورس بخميس ،
وأشرقت على أعمال حفرها . وأتميزت المهمة في ظرف ثلاثة ... (١) ،
حتى اتمكن من العودة إلى المقر الملكي قبل انحسار المياه (..) " .
(نقلًا عن النص الفرنسي)

A. Roccati , O.C., (P. 182 - 186)

أتم " نخبو " تدريبه كبناء وكنجار في صحبة أخيه ، ثم تولى إدارة
ممتلكات أخيه الذي تعلم عليه الإشراف عليها بنفسه ، إذ شغلته عنها
أعباء وظيفته . ثم سار على هدى أخيه ، وسلك الدرب الذي سلكه ،
فتدرج في السلم الوظيفي درجة درجة . وامتدت إنشاءاته لتشمل المباني
وأعمال التجارة وشق القنوات . ومن المسلم به أنه يحيط تربيته بهالة من
التفخيم والتعظيم . ولكن إذا وضعناها في الإطار العائلي الذي يتحدث
عنه لاتضح أن هذه الترقية لا تنطوي على أى ارتقاء على الصعيد
الاجتماعي . صحيح أن " نخبو " قد بدأ حياته كبناء عادي ، غير أنه
لم يكن مجرد أجير بسيط يعيش من عمله .

حقاً أن الأسرة تلعب دوراً حيوياً في توجيه الصغار الذين يبدؤون
تدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا بلغوا سن الشباب لغتهم الآباء أو
الأخوة مبادئ مهنتهم وأصولها ، ولا ينتقل للعمل إلى مكان آخر إلا
الذين لا يجدوا عملاً في نفس المؤسسة أو نفس الووشة التي يعمل فيها
ذوهم .

إن السير الذاتية التي كشف عنها نقوش أو رسوم أهم المقابر وأرقاها
شأناً لا تخص على وجه التحديد الطبقة الميسورة . وليس لنا أن نتوقع
من هذا الفن الأدبي أن يلتقي الضوء على أدنى الطبقات الشعبية .

وعالياً ما تكتفى المنشآت التى خلفتها هذه الطبقات بالإشارة إلى المهن التى زارلوها هم وذوودهم . وفى الحالات الاستثنائية يصورون وهم يارسون فنونهم . وقد شاع ظهورهم درن ذكر لأسمائهم وسط زملائهم فى العمل عند تصوير أعمال الإنشاءات والورش فى مقبرة الموظف الكبير المكلف بالإشراف عليها . وإذا كان فى إمكاننا تصور النشاط اليومى لأحد العمال ، فالفضل فى ذلك يرجع إلى سجلات المحفوظات . ولكن هذا التصور قاصر على مجتمع عمال الجبانة الذين استخدمهم ملوك الدولة الحديثة لنقر و زخرفة مقابرهم الصخرية برادى الملوك غوى طيبة .

إنهم عمال بسطاء ، فرؤساؤهم الكتبة يخلفون آباءهم فى وظائفهم ، فقد كانوا مثلهم عمالاً قبل أن يصبحوا رؤساء عليهم . وقد استقرت هذه العائلات فى هذه الأعمال التى كانت تدر أجراً مجزياً بالمقارنة مع الجهد المبذول ، أو بالثبات العمالية الأخرى التى أبهى لنا تاريخ مصر عنها ما يكفى من الوثائق لمقارنات موضوعية . فلنستبعد أيام الأعياد التى تنتقل فيها فرق العمل بكاملها ، نساؤها وأطفالها ، إلى طريق الملوك حيث يشاهدون القارب المقدس والموظفين الذين حضروا خصيصاً احتفاءً بهذه المناسبة . ولنستبعد أيضاً تلك الأيام المحددة لاحتفالاتهم الدينية ، والأيام التى تحظى فيها مواقع العمل بشرف زيارة الوزير ، أو الأيام التى يودع فيها الجميع أحد زملائهم إلى مشواه الأخير ، أو الأيام التى يتررون فيها الإضراب عن العمل ، أو الإعتصام بمواقع العمل ، أو الخروج فى مظاهرات حول المعابد الجنائزية فى الهرم الغربى عندما يتأخر تسليمهم حصص القمح والشعير ، أكثر مما يحتملونه .

ولنأخذ كمثال يوماً من أيام العمل العادية . لقد حضر الملك أو وزيره إلى الجبانة الملكية لإختيار أنسب المواقع وأنضلها لإعداد المقبرة . ثم تتولى لجنة من الأعيان ورؤساء فريق العمل وضع تصميم المقبرة . لقد

انتهوا لتوهم من نحت العديد من الدواليب والحجرات بالاستعانة بنصف فريق العمل فحسب . وهكذا أصبح المكان جاهزاً لعمل أصحاب التخصصات المختلفة ، وبيّارح العمال قرّبتهم مع مطلع الفجر ، ليستمر عملهم على امتداد ثماني ساعات ، فيتسلقون الطريق المختصر الذي يقودهم إلى الهضبة الجبيرة عند الممر المشرف على وادي الملوك ، ويتركون وجبة خفيفة في الأكواخ المبنية من الذهب التي أعدها على عجل ليأووا إليها إذا اقتضت الظروف عدم العودة إلى القرية . ويدلقون عبر الدرب شديد الانحدار والموصل إلى موقع العمل . ويتبادل البوابون معهم تحية قاترة . لقد قاموا على حراسة الحجرات المحصنة حيث توضع الأدوات الضرورية لزخرفة جدران المقبرة ، ويستفسرون عن وردية العمال . وقد تبدأ على الفور مناداة العمال بأسمائهم للتحقق من حضورهم . أما إذا انشغل الكاتب ببعض الأعمال فتزجل المناداة إلى وقت لاحق . إن عدد العمال على ما يبدو ضئيل هذا الصباح . لقد توجهه " آمون نخت " في صحبة " باشد " إلى أحد الوديان لإحضار الجص اللازم لإعداد الملاط لترميم عيوب الصخر في المقبرة . كما غاب " نلرونيت " لوقت قصير ليروي ظمأه ، وقد تغيب " سن نجم " و " وعمودا " لقيامهما برأب زهارة عمهما المريض مرضاً خطيراً بإحدى القرى المجاورة . أما " يارح مسو " ، فينتظر مولوداً جديداً ، ويعالج السج " أمتحوتب " الإلتهاب الذي أصاب عينه " پاخرو " . أما " فاختي " وزميله " فن خرخشف " فقد لدغهما عقرب . ويتولى " أن خر خمو " إعداد الجعة بمعاونة المدعو " قنا " استعداداً لعيد " مروت سجر " * إلهة قمة مرتفعات طيبة . وفي المجموع فقد تغيب اثنا عشر عاملاً من بين ستين . لا بأس ! فالغياب في حדרه المسقول والمقبول .

* من الإلهة الحامية للجبانة وقد هبت في غربي الأقصر . وهي أحياناً تمثل على هيئة ثعبان الكوبرا أو على شكل امرأة ذات رأس بشري أو رأس ثعبان (المراجع) .

قبل تسجيل مستوى الفيضان الذى تتوقف عليه وفرة المحاصيل . ويوزع الملوك جل اهتمامهم بين المظاهر الرمزية للنظام الملكى وعلامات الريع والتقوى وبين إدارة اقتصاد البلاد والدفاع عن حدود المملكة . ويتم تسجيل المراسيم والمخططات المعبرة عن الإرادة الملكية على النصب أو اللوحات الحجرية . وعلى جدران مقابر رجال البلاط . ويلاحظ أن زوسر ونب كاوي ، وملوك الأسرة الرابعة سنفرو وخوفو وخفرع ، صاورا أبطال القصص الأدبية ، وكانوا يسمعون وراء المتع الذهنية بدرجات متفاوتة . إن نبؤات نفرتى والتي تم تأليفها فى زمن لاحق ، وفى عهد الدولة الوسطى بالتحديد ، تقدم عرضاً لأصول السلوك المتحضر فى البلاط الملكى :

" فى أيام صاحب الجلالة الملك البار سنفرو - له الحياة والرفاهية والصحة * - الذى اشتهر بكرمه فى طول البلاد وعرضها ، حدث ذات يوم والملك جالس فى قصره أن دخل عليه موظف البلاط لتقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم انصرفوا حسبا اعتادوا كل يوم . وهم جلالته - له الحياة والرفاهية والصحة - فقال لأمين خزينة المملكة الواقف بجسواره : " هيا ، استدع موظفى البلاط الذين انصرفوا لتوهم بعد أن قدموا فروض الطاعة " ، ومثل الموظفون ثانية بين يدي الملك . " وانبطحوا ثانية على الأرض فى حضرة الملك ... " (نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم :

G. Lefebvre : Romans et Contes `egyptiens, Paris , 1949 , P. 96 - 97 .)

* عبارات تقرر عادة بأسماء الملوك وكل من كرمه الآلهة .

أما قصة سنوحى - فتتوخى مزيداً من الدقة عندما تصور أحداثاً
معاصرة للأسرة الثانية عشرة :

حضر عشرة رجال ، وانصرف عشرة رجال . ورافقونى إلى القصر .
ولست بجهتى الأرض بين ثنائيل أبى الهول . وكان الأبناء الملكيون فى
انتظارى عند المدخل لاستقبالى . أما أصدقاء الملك الذين سبقونى إلى
البهو الملكى فقد أرشدونى إلى الجناح الملكى الخاص ، حيث وجدت
جلالته جالساً فى المحراب ، على عرش من الألكتروم * . فانبطحت
أرضاً على بطنى ، وغبت عن وعى .. "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم

G. Lefebvre , O.C., P. 21)

عرفت الأسرة الثانية عشرة منذ الأجيال اللاحقة بفطنة ملوكها ، وبما
مجلوا به من خصال حميدة . ونسبوا إليهم الفضل فى تأليف أسفار فى
الحكم . وسواء أكان ذلك حقيقة أم من نسج الخيال ، فقد ساد الاعتقاد
أن كل ملك يؤلف سقراً من هذه الأسفار كان يورثه لخليفته ، ثم يتواتر
السفر عبر الأجيال من بعده .

إن الصورة التى تركها لنا ملوك الدولة الحديثة عن أنفسهم فتمثل
القادة العسكريين الذين كللت هاماتهم بالأمجاد ، والذين يقودون قواتهم
من نصر إلى نصر . فنراهم وهم يقدمون إلى الآلهة ثروات البلاد
المتوحة ، أو يتقبلون الجزية من زعماء الدول المجاورة المغلوبة ، أو
يوزعون الهدايا السخية على أفضل خدام الدولة فى احتفالات مهيبة .

* الإلكتروم : الإسم الذى أطلقه اليونانيون على سبيكة من الذهب والنحاس
(المترجم) .

كان الكثير منهم مشرعين . فاشتهر حورمحب وستى الأول ورمسيس الثاني بإصلاحاتهم . وذاعت شهرة أمنحوتب الرابع بفضل تصوراته ذات النوعة الطبيعية والتي تركت أثراً عظيماً في مفاهيم الفن والأدب في نهاية الأسرة الثامنة عشرة .

* *

يرتبط منصب الوزير وكبار الموظفين ارتباطاً وثيقاً بمكانة الملك في إسطار حكومة البلاد . ولذا ، ويسبب افتقارنا إلى التراجم الذاتية الدقيقة ، يتعذر علينا في المعتاد تحديد مسئولية كل منهم تحديداً واضحاً . فمنصب الوزير يقابل منصب رئيس الوزراء في العصر الراهن ، أي أنه كان رئيس الجهاز التنفيذي . إن وجود هذا المنصب أمر مؤكد منذ مطلع الأسرة الراهمة ، بيد أنه لا يمكن استبعاد وجوده قبل ذلك العصر . وأثناء الدولة الحديثة تزايدت مهام الوزير حتى أثقلت كاهله ، فظهر منصب وزير الوجه البحري إلى جانب وزير الوجه القبلي . وكانت مسئولية الوزير هي تسيير الأمور في أرجاء المملكة . كان عاهل البلاد يختار الوزير من بين أقرب المقربين إليه ، بل ومن بين أفراد أسرته . ولقد وصلتنا العديد من التراجم الذاتية التي تمتدح كفاءة الوزراء المتوفين ومآثرهم . وكانت مقبرة * رخمى ربح * * ، معاون محوتمس الثالث وخلفائه ، هي المقبرة الوحيدة التي احتفظت بمشاهد اعتلاء الملك عرش البلاد ، وإلقاء خطابه بهذه المناسبة ، وقد فصل الخطاب واجبات الوزير الذي يشغل الوظيفة الأولى في الدولة ، مع تصوير مختلف الأنشطة التي يشرف عليها ، وتدوين كافة الشروح اللازمة .

* وهو صاحب المقبرة رقم ١٠٠ في الحوزة العليا بجهانة شيخ عبد القرنه بطيبة الغربية ، وكان رخمى ربح حاكماً لمدينة طيبة وتولى الوزارة في أواخر أيام محوتمس الثالث والسنوات المبكرة من حكم ابنه أمنحوتب الثاني (المترجم) .

وتجربى لقاءات الوزير اليومية مع كبار المسؤولين فى الدولة فى مكتبه عندما يكون فى العاصمة . وهذه المقابلات تسير وفقاً لتقليد ثابت لا يتغير :

* فيجلس (الوزير) على مقعده وفوقه وسادة ، بينما الأرض مغطاة بالحصى ، وفوق رأسه مظلة ، وتحت قدميه وسادة أخرى ، ويمسك بعضاً فى يده . وتصف أمامه مفتوحه قراطيس الرق الأربعين ، ويقف أعضاء * مجلس الشيوخ العشر فى الجنوب * * على الجانبين وفى مراجعته . أما إلى يمينه فيقف خادمه الخاص ، بينما المشرف على الإيرادات يقف على يساره ، وكتبة الوزير على مقربه منه ، وفى إمكان كل منهم أن يحدث الآخر (٢) والواقع أن كلاً منهم يقف فى المكان المناسب . يستمع الوزير إلى من يحل عليه الدور ، ولا يسمح لآخر أن يتحدث قبل الشخص الذى حلّ عليه الدور .. "

هذهية يتسلم الوزير أختام الحجرات المحصنة ويشرف على فتحها . ثم يحاط علماً بالأوضاع فى قلاع الشمال والجنوب . وتعرض عليه مصروفات وإيرادات الأملاك الملكية وأراضى المقر الرسمى لعاهل البلاد . ويقدم مدير الشرطة ورؤساء المراكز تقاريرهم إليه ، ثم يتجه إلى القصر الملكى لتقديم فروض الولاء للملك ، ومقابلة مسئول الأختام ، ليتباحث معه فى إجراءات الأمن الخاصة بفتح جميع أبواب الأملاك الملكية التى تجرى مرتين فى اليوم . وينجز الوزير كل هذه الأعياء فى صدر النهار .

* تمت اختصاصات هذا الجهاز إلى أرجاء البلاد ولا يختص بالجنوب فقط كما قد يرمى بذلك الاسم . ويتكون من كبار الموظفين الساهرين على تنفيذ الإدارة العليا للملك البلاد . (المترجم) .

ومن اختصاص الوزير وحده ، محاكمة كبار الموظفين بشأن التهم التي يوجهها إليهم زملاؤهم ، كما يختص بالفصل في الدعاوى الداخلية الخاصة بالأموال الملكية . كما يحق لأي موظف ، سواء أولهم مرتبة أو أقلهم شأنًا ، أن يمثل بين يديه طالبًا النصيح والإرشاد . وهو يقوم بتسجيل الهبات وعقود البيع أو القسمة ، ويفحص العرائض والمظالم الخاصة باستثمار الأرض ، ويأمر بقطع الأشجار في أملاك الملك عند الضرورة ، ويقرر بناء السدود ، ويقف على أوضاع شبكة الري في البلاد ، ويسهر على حسن توزيع المياه على الحقول والمزارع ، ويصدر التعليمات إلى حكام الأقاليم ورؤساء الأملاك في أوقات الحصاد . وهو الذي يحدد الدوائر الزراعية والمراعى في كل إقليم ، كما يتولى الإعلان عن قدوم الفيضان ويده السنة الجديدة بعد أن يستطلع شروق نجم الشعرى اليمانية . وفي احتفال ضخم مهيب ، يتقدم الرسل القادمون من أرجاء البلاد إليه لتسليم الضرائب ، ويمثل بين يديه دافعوا الجزية من أنحاء الإمبراطورية . وهو الذي يعين الموظفين وينظم تجنيد قوات الحرس الملكي ، ويرسل المندوبين إلى المسئولين المحليين لتنفيذ المراسيم الملكية وإبلاغ عملياته إلى أركان حرب الجيش .

وبما لا شك فيه ، أن الوزير غير مكلف يومياً بمعالجة كل هذه القضايا أو إنجاز جميع هذه المهام ، ألغاها موزعة على مدار السنة ، وكل ما قصدناه هو تقديم عرض موجز بالمسئوليات التي كان يضطلع بها الوزير رخصي رع . ومن المشاهد الأخرى بمقبرته نراه في جولة تفقديه في مخازن أملاك آمرون وورشه . ومن ناحية أخرى ، نعرف أنه كان المسئول شخصياً عن إعداد مقبرة عاهل البلاد ومتابعة تقدم العمل في الإنشاءات الملكية الكبرى . كما يحضر الاحتفالات الملكية العظمى ويشارك في الأعياد الدينية وما شابه ذلك . ومن هنا نشأت الحاجة إلى جهاز إداري ضخم متعدد الاختصاصات ليعاون الوزير في أعبائه الضخمة .

٢ - الموظفون

من غير الوارد هنا أن نتناول ولو بشكل مقتضب أمثلة مختارة لأكثر الوظائف تمثيلاً للجهاز الإداري في العاصمة أو في الأقاليم . وحسبنا أن نعطي الكلمة ولو لبرهة وجيزة لأحد كبار موظفي الأسرة السادسة الذي وصل في سلم الترقى إلى منصب حاكم إقليم وحاكم الجنوب ، ثم نتناول بالبحث وظيفة الكاتب المصري ، أحد ركائز الجهاز الإداري ، فندرس ولو بشكل جزئي المهام التي كانت ملقاة على عاتق هذا الموظف العام . لقد بلغت هذه الوظيفة درجة فائقة من التنظيم الذي حماها من التقلبات والأزمات التي لحقت بالنظام الملكي ، وظلت صامدة أمام الغزوات الكاسحة .

سبق أن أشرنا إلى " ونى " كبير موظفي القصر ، عند الحديث عن المسئوليات الجسام التي كلفه بها پيى الأول * حين نصبه على رأس جيشه . وروى لنا " ونى " كيف ارتقى درجات السلم الوظيفي ، كما يبرز أهم مراحل حياته الوظيفية قائلاً :

" عندما كنت غلاماً ما يزال يتمنطق بالزئار ، شغلت وظيفة رئيس مخزن في عهد صاحب الجلالة تيسى . ثم عينت كبيراً لموظفي البيت الكبير (...) ثم كاهناً مرتلاً وكاهناً أولاً بالقصر الأزلي ، في عهد صاحب الجلالة پيى . ثم رقاني جلالتيه إلى منصب الصديق وكبير كهنة مدينة هرمه (... وعينني جلالتيه) قاضياً في مدينة نحن ** إذ كنت

* پيى الأول هو ثاني ملوك الأسرة السادسة وأحد ملوكها العظام . (المترح)
** قامت على أطلال نحن القديمة قرية الكوم الأحمر الحالية ، شمال أدنيس (المراجع) .

محل ثقته ، فاشتركت بمفردي مع الوزير في الفصل في القضايا الخاصة
بشؤون الملك والحريم الملكي ومحكمة الستة (...) وعندما كنت قاضياً
في مدينة نخن عينتي جلالة صديقاً أواحداً وكبيراً لموظفي البيت
الكبير . وجرى محاكمة سرية في الحريم الملكي للزوجة الملكية وصاحبة
المظلة الكبرى . وكلفني صاحب الجلالة بالفصل في القضية وحدي ،
دون معارضة قاضي أو وزير أو عين من الأعيان ... بل حكمت فيها
بمفردي * (...) .

وهنا نصل إلى الفقرة التي سبق الاستشهاد بها (ص ٢٤ - ٢٧)
فقد خرج " ونى " على رأس الجيش الذي تم تجهيزه لصد الغزاة القادمين
من آسيا . ونظراً لتجأحه كلفه يميني الأول خمس مرات على التوالي
بإعداد القوافل اللازمة لمحاربة نفس الأعداء . فقاد قوافله إلى النصر
الحاسم . وعند عودته إلى البلاط الملكي كانت في انتظاره مهام جديدة
جسام :

رأى كنت مشرفاً بالقصر الملكي وحامل النعال ، قسام سيدي ، مري
ان ربح ** . ملك الوجه القبلي والوجه البحري - للبحر إلى الأبد -
وعينتي حاكماً مشرفاً على الوجه القبلي في جنوبي " إلفنتين " ***

* تخلف يميني الأول من زوجته الملكية وقدمها للمحاكمة لأسباب لا تعرفها . وقد
عارفه " ونى " في تنفيذ رغبته فنال الثقة الفاليسية . (المراجع) .
** ابن يميني الأول وهو أحد ملوك الأسرة السادسة العظام وقد مات في سن
مبكرة (المراجع) .
*** إلفنتين أو جزيرة أسوان وكان أسسها أيام القراعنة * أبو * ومعاها مدينة
القبيل (المترجم) .

وحتى شمال أطفيس * (...) والمجزت كل ما كلفت به من أعمال . وقمت مرتين بجرد جميع أملاك المقر الملكي في صعيد مصر . وكانت بحاجة إلى الجرد . كما قمت أيضاً بحصر جميع الوظائف التابعة للمقر الملكي والتي كانت بحاجة إلى حصر . وشكلت هيئة إدارية لذلك ، فكان نجاحاً باهراً في صعيد مصر (...) وأرسلني صاحب الجلالة إلى " إيهيت " ** لإحضار تاهوت الأحياء ، أو " رب الحياة " بغطائه والهرم النفيس الجليل المخصص للهرم المسمى " مري أن رع يشرق في كماله " . كما أرسلني صاحب الجلالة إلى الفتتين لإحضار الباب الوهمي وعتبة الباب والعتب العلوي والمتاويس ، وكلها من الجرانيت ، إلى جانب الأبواب والبلاط الجرانيتي اللازم للحجرة العلوية لهرم " مري أن رع يشرق في كماله " . وأبحرت شمالاً ، قاصداً هرم " مري أن رع يشرق في كماله " على رأس أسطول من السفن يضم ستة صنادل وثلاث سفن مسطحة ذات شراع مربع وثلاثة مراكب . كما أرسلني صاحب الجلالة إلى " حتروب " *** لإحضار مائدة ضخمة من الأليستر الذي تشتهر به هذه المنطقة . كما أرسلني صاحب الجلالة لشق خمس قنصوات في صعيد مصر **** كما ذهبت إلى " وارات " حيث خشب السنط ، لصناعة ثلاثة قوارب وأربع سفن مسطحة ذات شراع مربع " وقد قام الأمراء الأجانب في كل من إرتت وارات وإيام ومدجا بتقديم الأخشاب اللازمة . " (النص الفرنسي نقلاً عن

* أطفيس ، كانت عاصمة الإقليم ٢٢ من أقاليم الوجد القبلي ، وتقع جنوب مدينة الصف . كان اسمها القديم " تپ إحي " وتقع في العصر القبطي ، وهو أصل اسمها الحالي (المترجم) .

** محاجر إيهيت بالثوبة (المترجم) .

*** تقع شرق النيل ، جنوب شرق تل العمارنة . وتعني دار الذهب أو قصر الذهب (المترجم) .

**** عند الجندل الأول لتيسير الملاحة (المترجم) .

Rocatti . la Litterature historique Sous l' Ancien Empire , Paris , 1982 . P. 191 - 197) .

شغل " ونى " مختلف المناصب على امتداد حياته الوظيفية . فتقلد على التوالي ، أو على آن واحد ، مناصب إدارية داخل القصر ، أو قضائية فى الأقاليم وذلك فى بداية الأمر ، ثم فى البلاط الملكى . كما تجوأ المناصب العسكرية ، ثم عاد إلى المناصب الإدارية ولكن على صعيد أرقى ، كمعاون مباشر للملك ، ووزيره على صعيد مصر . وأخيراً وقع عليه الاختيار لإعداد مقابر الملوك الأربعة الذين خدم فى عهدهم . وهى مهام لم يكلف بها إلا من تحلى بالأمانة ، فقد كان " ونى " أهلاً للشقة الكاملة .



يتضمن برنامج تدريب الكاتب مجموعة نصوص دعائية وغايج خطابات وحسابات . ومع حلول الدولة الحديثة ظهرت مؤلفات مستوحاة من كتاب " هجو المهن " ، مع تطوير الناحية الإبداعية فيه . لقد استهدفت هذه المؤلفات تمجيد مهنة الكاتب من خلال تشجيع همم الشبان المتطلعين إلى اختيار مهن أخرى خير مهنة الكاتب ، والعمل على إحياء مسمى الكتبة الراغبين فى تغيير مهنتهم . وإن إصرار هذه المؤلفات فى عناد على بلوغ هدفها ، ليشير الشكوك والارتياب ، لا سيما لما نلاحظه من إنتشار موضوع أدهى آخر انتشاراً واسعاً ، يتمثل فى خطابات تأنيب وهمية موجهة إلى الكتبة المتكاسلين .

· إن الصيغة التقليدية لهذا النوع من الأدب تبدأ بالأمر القاطع :
" كن كاتباً " ، إلى ذلك قائمة طويلة تبين بالتفصيل المساوىء والأضرار
التي تنتظر كل غلام يرتكب حماقة اختيار مهنة أخرى غير مهنة
الكاتب . ويدور الحديث حول مختلف المهن التي يمكن أن يتصورها
عقل ، عدا مهنة الكاتب بالطبع ، وظهرت نسخة منقحة لى هذا النوع
الأدبى ، كانت أكثر قسوة لى نقدها ، حيث تقف عند حد التأكيد بشكل
عام على مزايا وظيفة الكاتب لأصحاب التكوين الجسمانى الرقيق :
" كن كاتباً . فبشرتك ناعمة وساعدك يصاب بالإعياء (بسرعة)
لا تحترق كما تحترق الشمعة على قرار من تداعت قواهم الجسدية . إن
عظملك طرى . . أنت طويل ونحيف ، فإذا أقدمت على جر الأحمال أو
رفعها .. خارت قواك ، إلخ .. "
بينما تتمحور نصوص أخرى مباشرة حول المزايا المادية لوظيفة الكاتب

وامتيازاتها :

" أقدم لك النصيح والإرشاد على المستوى الذهنى وعلى المستوى
الجسمانى ، حتى (تتمكن) من الإمساك بلوحة الكتابة بيسر
وسهولة ، وكى تكتسب ثقة الملك ، فتفتح أبواب خزائنه ومخازن
غلاله ، فتتوفر لك إمكانية تقديم القرايين فى الأعياد والمراسم . وترتدى
الملابس الفاخرة وتقتنى الخيول ، بينما يرسو قاربك عند شاطئ النهر .
وسوف تسير فى الطرقات فى حماية فرقة من الحرس ، وتتحرك بحرية
أثناء جولاتك التفتيشية . سوف تقطن داراً جميلة فى المدينة ،
ويختارك عاهل البلاد لى منصب مرموق ، ويلتف الخدم والخدمات من
حولك ، ويتقرب منك العاملون فى الريف والحقول التى تشرف على
استصلاحها ، ليصافحوك وعلامات البشر والسعادة على وجوههم .
" إنصت إلى . . . إنى جاعل منك موظفاً من موظفى " ملك الحياة ،
" اتقن ماتنسخه ، فتعفى مسن الضرائب وتصبح قاضياً
مرموقاً (...) . "

إن وظائف الكاتب متعددة ومتنوعة ، حسب الجهة التي تستخدمه ، سواء كانت قطاعاً عاماً أو قطاعاً خاصاً . فيعمل في إحدى المدن أو ينقل إلى الريف ، أو يقيد على قوة إحدى المؤسسات ، أو يندب للعمل في إحدى الحاميات العسكرية في أطراف البلاد . ورغم ذلك فإن هذه الوظيفة تنطوي عادة على قدر كبير من المسؤوليات الجسام التي تضع صاحبها فوق مستوى عامة الناس ، وتفتح أمامه آفاقاً رحبة لمستقبل زاهر باسم . " فالترقى هدف كل منا " ، ولا جدال أن معرفة القراءة والكتابة والإلمام بالحساب والقوانين تعطي صاحبها سلطاناً على الجماهير التي يغلب عليها الجهل والامية . ولا يشترط بالضرورة حتى يصبح المرء كاتباً أن ينتسب إلى عليقة القوم في المجتمع المصري . ويكشف لنا فحص الأنساب عن وجود عائلات أكملها توارثت وظيفة الكاتب . ونذكر على سبيل المثال عائلة الذين سجلوا محفوظات " قبر فرعون الجليل ، العظيم لملايين السنين " في العام السادس عشر من حكم رمسيس الثالث وحتى العام العشرين من حكم أمن إم أوبت * .

أى ما يقرب من مائة وخمسين سنة تعاقب خلالها على هذا المنصب سبعة أفراد كانت مهمتهم تسجيل العاملين في الوقف الملكي ، ومتابعة سير العمل ، وحصر المواد المرسلة للوقف لاستخدامها في أعمال التشييد ، والآلات ، وكذلك الأجور العينية على هيئة غلال والتي كانت تسلم مع مطلع كل شهر ويجرى تدبيرها بمعرفة الأجهزة المركزية ، كذلك تسجيل المراسيم القضائية الصادرة في قرية دير المدينة ، حيث يقطن العاملون ورؤسائهم ، ويواصلون عملهم في هدوء مادامت الحكومة تحافظ على الأمن والاستقرار ، وتضمن رخاءاً نسبياً في أرجاء البلاد . ويستعين

* أمن إم أوبت : أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذين حكموا في صان الحجر (تانيس) (المترجم) .

الكاتب يكاتبين آخرين مسئولين عن الجماعات المعاونة (سمدت) فى فرق العمال ، وعن الإمدادات اليومية التى تتسلها هذه الفرق . وكان من صميم اختصاص كاتب الجبانة كتابة المراسلات المرفوعة إلى الوزير أو إلى الملك ، إذا اقتضى الأمر ، أو إلى السلطات الإقليمية . كما كان مسئولاً عن تدوين التقارير وغيرها من وثائق رسمية . فعندما اجتاحت الاضرابات الجماعات العمالية بعد أن تكرر وقف صرف أجورهم العينية ، تولى الكاتب مفاوضة المسئولين . ولما بدأت العصابات المسلحة تجوب الريف ، وتزايدت أعدادها فعاثت فى الأرض فساداً ، وعجزت السلطة المركزية عن التصدي لها لانشغالها بواجبات تقتضيها الضرورة القصوى ، أخذ كاتب الجبانة يحل محل السلطات المركزية فى هذه المهمة ، على الصعيد المحلى فى أول الأمر ، ثم امتد نفوذه ليشمل مناطق بأسرها . فقد لجأ هو وفرقة محدودة ، إلى معبد رمسيس الثالث الجنائزى * ، واحتسب وراء أسواره المحصنة ، وحول المعبد إلى إدارة مركزية حكومية تشرف على المنطقة بأسرها وكان يباشر أعماله من مكتب جدير بموظائفه الجديدة . فكان ينتقل إلى القرى والأملالك الراقعة جنوبي البلاد لتحصيل الضرائب اللازمة لتسيير أمور مؤسسات مدينة طيبة وعلى الأخص دفع أجور الموظفين . وقد يختار أحدهم للقيام بمهام جسيمة . فيضطر إلى السفر إلى مصر الوسطى وإلى النوبة جنوباً حيث كان الجيش المصرى يواجه صعوبات فى الدفاع عن الحدود الجنوبية للبلاد . وكان اختياره لهذه المهام يتم رغماً عن أنه حيث أفصح فى مراسلاته عن نفوره من كثرة الأسفار والترحال .

* معبد رمسيس الثالث ، بمدينة هابر ، غرب طيبة ، هو أكبر ما حفظ من المعابد الجنائزية . كما أنه المعبد الوحيد المحصن . وتبلغ مساحته حوالى ٦٤ . ٠٠ م (٢٣٠ x ٢٠٠) متراً أى أكثر من ١٥ فدناً (د . محمد أنور شكرى . العمارة فى مصر القديمة ١٩٨٦ . ص ١٢٩ و ٤٢٢) (المترجم) .

٣- العمال والحرفيون

إن التمييز بين عامل متخصص وحرفي وفنان لا يرتكز إلى وجود مؤسسات تجمع كل فئة على حدة ، وإنما كانت بعض المهن تساعد ، أكثر من غيرها ، على إبراز مهارات أصحابها وقدراتهم . فإن عملوا مثلاً في بلاط الملك ، أو في ورشة أو في الإنشاءات التي تهم الملك بشكل خاص ، تكون فرصتهم في التمييز أكبر وأعظم ، ومن ثم تكون الترقية من نصيبهم مكافأة على اجتهدهم . فنرى " مري پتاج عشق مري رع " ، المدعو " تخير " * ، قد بدأ حياته كبناء عادي ، ليصبح فيما بعد المعمارى المفضل عند بهيى الأول :

" بدأت عملى عند جلالتہ كبناء عادى . ثم عيننى جلالتہ مفتشاً على البنائين ، فمشرناً عليهم . ثم رئيساً لمجموعة ، ثم رقائى جلالتہ إلى بحار و بناء تابع للملك . ثم عيننى صديقاً أواحداً ، ولججاً و بناء ملكياً فى الإدارتين (...) وعندما ، اصطحبت أخى ، رئيس أعمال الإنشاءات ... كنت أتولى أعمال الكتابة وأحمل لوحة الكتابة . فلما عين أخى مفتشاً على البنائين حملت له عصا القياس (٢) . ولما عين رئيساً على البنائين ، كنت (وبقية) الثالث . ولما عين لججاً و بناء ملكياً ، كنت أدير أملاكه نيابة عنه . وألججت كل شىء على خير ما برام . وعند تعيينه صديقاً أواحداً ، ولججاً ، و بناء ملكياً فى الإدارتين ، أشرفت على حسابات كافة الممتلكات ، وكثرت المقتنيات التى فى داره ، وفانت مقتنيات أى عين من الأعيان . وبعد تعيينه رئيساً لأعمال الإنشاءات كنت أنوب عنه فى مختلف الأعمال بما يرضيه ، فأشرفت على إدارة أملاكه الجنائزية على امتداد عشرين سنة (..) . وعيننى صاحب الجلالة مديراً .. وعملت بما يرضى جلالتہ فى الوجه القبلى وفى

* سجل تخير هذا النص فى مقبرته فى الجيزة (المترجم) .

الوجه البحري . وكلفني جلالتة بتابعة (أعمال) مقصورته الجنائزية
في الدلتا (...) ، كما كلفني بتحديد مسار قناة خورس بخميس ،
وأشرفت على أعمال حفرها . وأتمجرت المهمة في ظرف ثلاثة ... (١) .
حتى اتمكن من العودة إلى المقر الملكي قبل انحصار المياه (..) " .
(نقلاً عن النص الفرنسي)

A. Roccati , O.C., (P. 182 - 186)

أتم " نخبو " تدريبه كبناء وكنجار في صحبة أخيه ، ثم تولى إدارة
ممتلكات أخيه الذي تعلم عليه الإشراف عليها بنفسه ، إذ شغلته عنها
أعباء وظيفته . ثم سار على هدى أخيه ، وسلك الدروب الذي سلكه .
فتدرج في السلم الوظيفي درجة درجة . وامتدت إنشاءاته لتشمل المباني
وأعمال النجارة وشق القنوات . ومن المسلم به أنه يحيط تربيته بهالة من
التفخيم والتعظيم . ولكن إذا وضعناها في الإطار العائلي الذي يتحدث
عنه لاتضح أن هذه الترقية لا تنطوي على أى ارتقاء على الصعيد
الاجتماعي . صحيح أن " نخبو " قد بدأ حياته كبناء عادي ، غير أنه
لم يكن مجرد أجير بسيط يعيش من عمله .

حقاً أن الأسرة تلعب دوراً حيوياً في توجيه الصغار الذين يبدؤون
تدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا بلغوا سن الشباب لقنهم الآباء أو
الأخوة مبادئ مهنتهم وأصولها ، ولا ينتقل للعمل إلى مكان آخر إلا
الذين لا يجدوا عملاً في نفس المؤسسة أو نفس الورشة التي يعمل فيها
ذوهم .

إن السير الذاتية التي كشف عنها نقوش أو رسوم أهم المقابر وأرقاها
شأناً لا تخص على وجه التحديد الطبقة الميسورة . وليس لنا أن نتوقع
من هذا الفن الأدبي أن يلقى الضوء على أدنى الطبقات الشعبية .

وغالباً ما تكتفى المنشآت التي خلفتها هذه الطبقات بالإشارة إلى المهن التي زاولوها هم وذروهم . وفي الحالات الاستثنائية بصورون وهم يمارسون فنونهم . وقد شاع ظهورهم دون ذكر لأسمائهم وسط زملائهم في العمل عند تصوير أعمال الإنشاءات والورش في مقبرة الموظف الكبير المكلف بالإشراف عليها . وإذا كان في إمكاننا تصور النشاط اليومي لأحد العمال ، غالفصل في ذلك يرجع إلى سجلات المحفوظات . ولكن هذا التصور قاصر على مجتمع عمال الجبانة الذين استخدمهم ملوك الدولة الحديثة لنقر وزخرفة مقابرهم الصخرية بوادي الملوك غربى طيبة .

إنهم عمال بسطاء ، قرؤساؤهم الكتبة يخلفون آباءهم في وظائفهم ، فقد كانوا مثلهم عمالاً قبل أن يصبحوا رؤساء عليهم . وقد استقرت هذه العائلات في هذه الأعمال التي كانت تدر أجراً مجزياً بالمقارنة مع الجهد المبذول ، أو بالفئات العمالية الأخرى التي أبقي لنا تاريخ مصر عنها ما يكفي من الوثائق لعقد مقارنات موضوعية . فلنستبعد أيام الأعياد التي تنتقل فيها فرق العمل بكاملها ، نساؤها وأطفالها ، إلى طريق المركب حيث يشاهدون القارب المقدس والموظفين الذين حضروا خصيصاً احتفاءً بهذه المناسبة . ولنستبعد أيضاً تلك الأيام المحددة لاحتفالاتهم الدينية ، والأيام التي تحظى فيها مواقع العمل بشرف زيارة الوزير ، أو الأيام التي يودع فيها الجميع أحد زملائهم إلى مشواه الأخير ، أو الأيام التي يقررون فيها الإضراب عن العمل ، أو الإعتصام بمواقع العمل ، أو الخروج في مظاهرات حول المعابد الجنائزية في الهرم الغربي عندما يتأخر تسليمهم حصص القمح والشعير ، أكثر مما يحتملونه .

ولنأخذ كمثال يوماً من أيام العمل العادية . لقد حضر الملك أو وزيره إلى الجبانة الملكية لإختيار أنسب المواقع وأفضلها لإعداد المقبرة . ثم تتولى لجنة من الأعيان ورؤساء لفرق العمل وضع تصميم المقبرة . لقد

انتبهوا لتوهم من تحت العديد من الدهاليز والحجرات بالاستعانة بنصف فريق العمل فحسب . وهكذا أصبح المكان جاهزاً لعمل أصحاب التخصصات المختلفة ، وبارح العمال قريتهم مع مطلع الفجر ، ليستمر عملهم على امتداد ثمانى ساعات ، ليتسلقون الطريق المختصر الذى يتوهم إلى الهضبة الجيرية عند المر المشرف على وادى الملوك ، ويتركون وجبة خفيفة فى الأكواخ المبنية من الدبش التى أعدها على عجل ليأروا إليها إذا اقتضت الظروف عدم العودة إلى القرية . ويدلفون عبر الدرب شديد الانحدار والموصل إلى موقع العمل . ويتبادل البواهيون معهم تحية فائرة . لقد قاموا على حراسة الحجرات المحصنة حيث توضع الأدوات الضرورية لזخرفة جدران المقبرة ، ويستفسرون عن وردية العمال . وقد تبدأ على الفور مناداة العمال بأسمائهم للتحقق من حضورهم . أما إذا انشغل الكاتب ببعض الأعمال فتزجل المناداة إلى وقت لاحق . إن عدد العمال على ما يبدو ضئيل هذا الصباح . لقد توجه " آمون نخت " فى صحبة " پاشد " إلى أحد الوديان لإحضار الجص اللازم لإعداد الملاط لترميم عيوب الصخر فى المقبرة . كما غاب " نفررپت " لوقت قصير ليروى ظمأه ، وقد تغيب " سن نجم " و " رعموذا " لقيامهما بواجب زيارة عمهما المريض مرضاً خطيراً بإحدى القرى المجاورة . أما " پارع مسو " ، فينتظر مولوداً جديداً ، ويعالج " أمتحوتب " الإلتهاب الذى أصاب عينى " پاخرو " . أما " ناخى " وزميله " قن حرخبشف " فقد لدغهما عقرب . ويتولى " أن حر خعمو " إعداد الجمعة بمعاونة المدعو " قنا " استعداداً لعيد " مروت سجر " * إلهة قمة مرتفعات طيبة . وفى المجموع فقد تغيب اثنا عشر عاملاً من بين ستين . لا بأس ! فالغياب فى حدود المعقول والقبول ١.

* هى الإلهة الحامية للحيانة وقد عهدت فى غربي الأقصر . وهى أحياناً تمثل على هيئة ثعبان الكوبرا أو على شكل امرأة ذات رأس بشرى أو رأس ثعبان (المراجع) .

ويحضر العمال الغرائر التي ستستخدم لرفع الردم والأنقاض ، كما يحضرون فتيل السُرج التي يستهلك موقع العمل منها كميات متزايدة كلما تقدم العمل واشتدت العتمة والظلمة عبر المكان . ويستخرج كل عامل أدوات عمله ، ويتحقق من حالتها وقد انتابه قدر من القلق . فعليه إعادة الأدوات بعد إنتهاء العمل وتسليمها إلى الكاتب الذي سيوازن بينها وبين حجر يستخدم كوزن وسجلت عليه جميع البيانات اللازمة لإحكام المظاهرة والرقابة عند التسليم . وأخيراً يصل العمال الحاضرون قرب أماكن عملهم . لقد قاربت أعمال النحت في أحد الجدران على الانتهاء ، ويمكن البدء في عملية التلوين . كان الرسامون قد توجهوا بالأمس إلى جبل قريب لإحضار المواد التي تستخدم في التلوين . واليوم يصحنوها جيداً ثم يحلونّها ، وقبلتهم بنهمك نحات بكل براعة ولن لإبراز ملامح أشخاص بأزميله النحاسي . وتتم عملية الحفر هذه بعد أن قام رسام يرسم الشخص بالمفرقة الحمراء . ويتولى معلمه ورئيس فريق العمل استبدالها باللون الأسود . ويتصاعد ضجيج المعاول البرونزية في المرات التي تهبط إلى جوف الجبل وهي ترتطم بالصخور التي تتطاير شظاياها . فيجسمها الصبية في الغرائر ليفرغوها في الخارج . وعلى مقربة من الباب يهذل رسام آخر محاولات لرسم بعض العناصر المكونة لمشهد جنائزي ، وسوف ينقل هذا المشهد بعد تكبيره على جدار يجرى إعداده . لقد احتفظ الرسام بأكثر الشظايا استواء ليرسم عليها بفرشاته بعض التكوينات الفنية . ويجواره بتدرب إبنة وابن أخيه على شخبطة تحاكي رسوماته . أما الكاتب فقد أعد لنفسه مكاناً مريحاً بين حنيات الصخر يلجأ إليه بعيداً عن صخب العمل والعمال . ويسجل على شظايا الحجر الجيري ملاحظات حول سير العمل في الموقع . وسوف ينسخها فيما بعد في يوميات الجبانه . وخلال النهار ، ينقطع عن العمل برهة ليتسلم فتائل مجدولة ، وزيت السرج ، ويعد بيانات تفصيلية عنها .

وعند الظهيرة يتوقف العمل ، ويباح الرجال موقع العمل بعد أن لازموا فترة ، وتطرف أعينهم من شدة الضوء الذي يغمرهم من كل ناحية في هذا الوادي الصحراوي المتوهج الحرارة . ثم ينصرفون جماعات جماعات ، فيتجه بعضهم إلى استراحة الوادي ، أما الآخرون الذين يفضلون العزلة فيتجهون إلى الملاهي التي اختاروها ، حيث تركوا لنا أسماءهم محفورة ، ويتناولون شيئاً من الطعام ، ويحصلون على قسط من الراحة ، ثم يعودون إلى موقع العمل للإنتهاء من العمل اليومي المكلفين به . ويتناوب مسئولان من كل جانب من فريق العمل مهمة الذهاب إلى القرية ، فيشتركان مع الكاتبين المختصين في استلام المشتريات عند وصول متعهدي السبك والخضروات الذين يزودون القرية بالمنتجات الطازجة . وفي بعض الأيام يتفرغ الرجال المسئولون عن الخدمة يوماً كاملاً لاستلام السلع الغذائية ، وتوزيعها على أهالي القرية ، وذلك طبقاً لنظام صارم يشرف عليه الكتبة الذين يسجلون كل صغيرة وكبيرة تجنياً للشكاوى التي تظهر بسهولة في هذا المجتمع المعزول . وفي حالة اشتداد النزاع أو تقديم المظالم إلى الرؤساء ، تنعقد محكمة تتشكل من رجال الجماعة أو من نساؤها في بعض الظروف ، وتصدر حكمها . وإذا لم ترض الأطراف المعنية بحكمها ، أو إذا لم يُنفذ الحكم ، يقرر الجميع استجلاء الوحي * ، من الملك المزله المنحوت الأول ** ، راعى

* اعتقد المصري أن المعبودات تشارك في تقرير مصيره وتوجيهه في أماله .
وزراء يعقد العزم على كشف ما قرره بصدده وتنصحه بمصلحه .
(أدولف ارمان ديانة مصر القديمة : ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ود. محمد أنور شكرى ص ١٧٤) (المترجم) .
** المنحوت الأول هو ابن أحسن قاهر الهكسوس ولد له هو وأمه الملكة أحسن نفرتاري له قبرين طيبة . واعتبرا حماة لعمال الجبانة ، واستمرت عبادتهما لقرون طويلة (المراجع) .

القرية وحاميها . أما الدعاوى التى تتجاوز حدود القرية ، فتختص بها محاكم المقاطعة ذات السلطات الأوسع ، ومثال ذلك سرقات المقابر الملكية المشهورة فى أواخر عصر الرعامسة والتى اتهم فيها عمال الجبانة عدة مرات .

ولا تستغرق عملية شق شبكة المعرات وحجرات المقبرة فى جوف الجبل الصخرى أكثر من سنتين ، ثم يستكمل النحاتون والرسمون والمصورون العمل فى المقبرة ، وتنتهى زخارف المقبرة بدورها بعد سنتين آخرين . ولما كانت مدة حكم بعض الملوك قصيرة ، فقد تتابعتم مواقع العمل فى إيقاع متسارع ، ولذا بقيت العديد من المقابر ناقصة لم تستكمل ، كان عدد أفراد كل فريق عمل يتراوح بين أربعين وستين فرداً فى المعتاد ، وإذا لزم الأمر يتم تعزيز فريق العمل بعدد إضافى من الأفراد ، ويتضاعف عددهم فى بعض الأحيان . ولا يمكن القول على كل حال ، أن إيقاع سير العمل كان إيقاعاً جهنمياً ، نظراً لكثرة التخييب على المستويين الفردى والجماعى معاً ، وكثرة الأعمال التى ينفذها العمال لمسابهم الخاص ، كالتماثيل والتوابيت الملوثة وكتب الموتى * وخلافه ... صحيح أن الفرق التى لا عمل لها كانت تستخدم أحياناً فى أعمال حرقية فى المنطقة ، ولكن الأعمال الإضافية كانت مصدراً لمكافآت إضافية .

* ظهر ابتداء من الأسرة ١٨ (١٥٨٠ ق . م) وهو يتكون من نصوص دينية جنازية كتب تارة على البردى وأخرى على الرق ويوضع أحياناً على المرمية مباشرة وأخرى يحفظ فى صندوق مستقل ويودع القبر. ويتكون " كتاب الموتى " من ١٤٠ فصلاً ويمتاز بالصورة التشخيصية . (المراجع) .

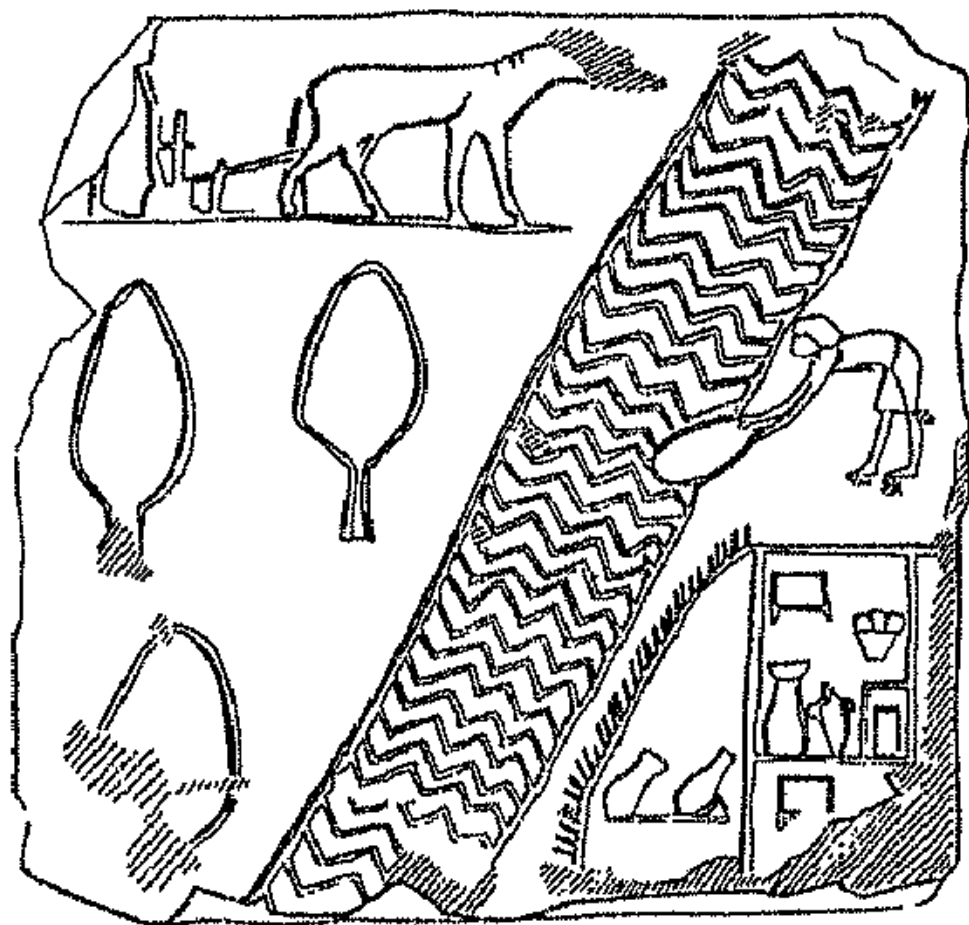
٤ - الفلاحون

يسكن عالم الفلاحين في مصر الفرعونية تناقضا غربيا : يتصدر المواضع الجنائزية عندما تتعرض لعالم الأحياء ، ورغم ذلك يظل هامشيا في اقتصاد يعتمد أساسا على الزراعة . وتجسد مشاهد المقابر سلسلة طويلة من مناظر الفلاحة والحصاد وتربية الماشية . وتتتابع مشاهد الحقول ، ففي أحدها نرى الرجال يدفعون المحراث الذي تسحبه بقرتان . وفي مشهد آخر يبلر الفلاحون البلور لتدوسها الحمير كي تخرق التربة وتدفن فيها أو يجنون الكتان ويقتلعون البصل . أما الحقول المزروعة بمختلف الخضروات والزهور فتعتمد عليها قنوات الري لتشكل شبكة منتظمة ، ويقوم الفلاحون برىها بعناية فائقة . وفي البساتين تمتد صفوف النخيل و صفوف أشجار الفاكهة . ويتسلق الكروم العرائش . وفي شمال البلاد تشكل البرك والمستنقعات بيئة صالحة لتربية الأهجار التي يقتادها حارسها إلى حيث المراعى ، فيحبر بها قنوات الصرف التي تخرج بالأسماك . وعلى مقربة من الشاطئ ، يحزم الرجال اليوس ويحطونه ، ثم يحولى آخرون رفعد على ظهورهم . وينتشر سيد العصافير بواسطة الشباك في المناطق الرطبة ، لتثقل بعد ذلك إلى المزروع بغرض تربيتها . وفي الجنوب ، عند حواف الرادى الصحراوية ، يرانب الرعاة قطعان الماعز والضأن .

وترسم المحاصيل الصيفية لوحة متناغمة ذات تنوعات لا حصر لها . ويتم جمع القلال والحبوب والخضروات والفراكة في أكرام ، أو توضع مباشرة في الأقفاص . ويدرس الفلاحون الحبوب ، وتتجه الحمير مثقلة بأحمالها إلى مخازن القلال . وعند هوابات ساحات المزروع ، أو فوق أسطح مخازن القلال ، ينتظر الكتبة وصول المحاصيل ، فيكبلونها قبل تخزينها . إن التماذج التي انتشرت في عصر الانتقال الأول وعصر الدولة

الوسطى شاع لديها تصوير حظائر الحيوان ، فى حين ندر وجودها على جدران المقاصير الجنائزية . وإضافة إلى ذلك ، كان صناع النماذج الحجرية ، والرسميون يفضلون تصوير مشاهد حصر الماشية ، إذ كانوا يستمتعون على ما يبدو ، بتجسيد الضرب المبرح الذى كان يتلقاه الفلاحون عند تحديد قيمة الضريبة السنوية التى تتغير حسب مقدار المحاصيل ، فيتولى جياة الضرائب تحصيلها عندما يحين موعدها . وفى حظائر الطيور ينثر العاملون الشبان حفنات من الحبوب ، وتجمع الطيور فى ألقاص صغيرة . أما الطيور ذات السيقان الطويلة ، فيجرى تربيتها فى ساحات مسورة . كما يعمل النحال بجوار مناحله . وغالباً ما يتم الإشراف على محاصيل المزرعة ومنتجاتها داخل المزرعة نفسها أو فى المباني الملحقة القريبة من مخازن الغلال وحظائر الحيوان أو فى الأروقة . ويضطلع بهذه الأعباء جيش من العاملين ، خبازون وكرامون وقصابون وطياخون ، الذين يعدون الخبز والجمعة والنبيذ والوجبات الطازجة والجافة والأطعمة المحفوظة ، أو يفرلون الكتان وينسجونه فى الورش المجاورة .

وقد أميط اللثام عن أنشطة زراعية متنوعة وحرف بسيطة متعددة بفضل الإشارات المقتضبة التى وردت فى بعض النصوص القديمة أو مخلفات الإنتاج التى اكتشفها الأثريون فى مواقع الحفائر . ولكن يغلب على مشاهد المقابر أنها تبرز أنشطة بعينها وتفضيلها على غيرها ، لا سيما المناظر التى تساعد الفنان على التعبير الحر عن ذوقه الفنى . فعندما يرسم الحيوان ، فإنه يتحرر من كل قيد ، ويطلق العنان لقدراته الإبداعية بلا حدود . أما فيما يتعلق برسم الفلاح فقد اقتصر اهتمامه على الحركات والأوضاع التقليدية المطلوب نقلها إلى عالم الأبدية . وفى عصر العمارنة ، اهتم الفنان بتصوير ممتلكات الملكة التى لا حصر لها ، وخاصة أملاك الإله آتون ، على جدران المقابر ومعابد إله الشمس . وإذا كان الفنان ، لم يهجر بشكل كامل الأساليب الفنية التى كانت سائدة فى



شكل ٣ : مشهد ريفي ، عصر العمارنة .
(نقلا عن : BIFAO 69 , 1971 Fig . 7 . P. 81)

العهود السابقة ، إلا أن الأمر لا يخلو من فروق دقيقة . فظهرت لوحات ضخمة أزدحمت بمشاهد صغيرة تمثل الحياة الأسرية والشعبية ، وروست الأطر المحددة لكل مشهد فى علاقاته العضوية بالخلفية العامة التى تجمع بين مختلف المشاهد . وتم نقل كل جزء وكل عنصر من العناصر المميزة . فى دقة فائقة ، فوضع كل كوخ فى مكانه الصحيح ، وكذلك السباح المحيط به .

كما يقدم الأدب المصرى صورة مبسطة عن حياة الفلاح تكتفى بالخطوط العامة . فالمشاهد الريفية التى تصورها إحدى القصص لا تختلف عن أمثالها فى أى مكان أو زمان .

" يحكى أنه كان يعيش فى سالف الزمان أخوان شقيقان . الأكبر يدعى " أنور " . أما الأصغر فيدعى " باتا " . وكان " أنور " صاحب دار ومتزوجاً . كما كان فى منزلة الأب ، بالنسبة لأخيه الصغير الذى كان يقيم معه تحت سقف واحد . كان " باتا " يحبك ثياب أخيه ، ويسوق ماشيته إلى الحقل والمراعى ، ويحرق الأرض . ويجمع المحصول ، ويقوم بمختلف أعمال الحقل المطلوبة منه . وكان الأخ الأصغر قوى الهنية دون شك . وقل أن يوجد مثيله فى أرجاء البلاد ، وكأنه يستمد قوته من قوة الرب "

" وموت الأمام ، وتعاقت . وكان الأخ الأصغر يسوق الماشية كعادته كل يوم ، ثم يعود فى المساء حاملاً مختلف المحاصيل الحقلية واللبن والخشب ويشائر ثمار الأرض ، فيقدمها لأخيه الأكبر الجالس بجوار زوجته . ثم يأكل ويشرب وينطلق إلى حظيرة الماشية (حيث ينام) . ومع بزوغ ضياء نهار جديد ، يعدّ (الطعام) ويقدمه لأخيه ، الذى يعطيه ما يكفيه من خبز . ثم ينصرف إلى الحقل ويسوق أمامه الأبقار

لترعى فى الحقل (..) ولما حل موسم الحرث خاطب الأخ الأكبر أخاه الأصغر قائلاً : هلمْ أعد الثيران للحرث ، فقد انحسرت المياه عن الأرض التى صارت صالحة للحرث . ولا تنس إحضار البذور ! فغداً نبدأ الحرث فى همة ونشاط * .

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى

G. Lefebvre , . cit, P. 142 - 143 .)

ونتنتقل إلى قصة أخرى ترجع إلى الدولة الحديثة * . وتروى مغامرات أحد سكان الواحات فى أسلوب يحسده عليه القصاصون العرب . لقد ترك الواحات إلى الوادى سعيًا وراء الرزق ، وبعد أن سلب منه جميع ما حمله من مقتنيات ، يمنحه القاضى جميع ممتلكات الشخص الذى كان يلاحقه ويضطهده بعد أن اقتنع بالظلم الذى راح ضحيته من كثرة ما قدم من شكاوى ومظالم .

* عندئذ أرسل (كبير الأمناء) " رنسى بن مبرو " حارسه (لإحضار " جحوتى نخت ") . وبعد أن مثل بين يديه قام بحصر ممتلكاته ، وما يمتلك من أتباع ، فكان عددهم ستة أشخاص بخلاف ... (٢) ما يمتلكه من زراعات للشعير فى مصر العليا ومن قمح وحمير وماشية وخنازير وأغنام . فأمر كبير الأمناء " بتسليم " جحوتى نخت "

* هكذا فى الأصل الفرنسى . وهذه القصة ، هى القصة التى اشتهرت باسم " الفلاح النسيج " وجرى حوادتها فى عصر الملك نب كاور ربح أحد ملوك احتاسية من الأسرة العاشرة ، وكتبت فى عصر الانتقال الأول الذى سبق الدولة الحديثة بحوالى خمسة قرون (د . أحمد فخري : الأدب المصرى القديم فى تاريخ الحضارة المصرية . جزء أول ص ٣٩٣ (المترجم) .

(ليعمل عبداً) في خدمة هذا الرجل الواسى ، كما منح كل ممتلكات
" چھوتى نخت " .

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى

G. Lefebvre , O.C., P. 142 - 143 .)

ومن الغريب حقاً أن النقد اللاذع الذى كان يوجه عادة لكل
المجتمعات الريفية لم يكن أدهاء ذلك العصر يوجهونه على لسان
المزارعين أنفسهم ، بل كان يصدر عن أحد الكتبة الذى يشور ويغضب
لرغبة أحد رفاقه القدامى أن يعود إلى الأرض :

" تذكر حال الفلاح ، عندما يطالبه المستولون تسديد الضرائب
المستحقة عليه خصماً من المحصول ، لقد ابتلعت الثعابين نصف المحصول
والتهم فرس النهر ما تبقى . وتغطفى الفئران الحقول وتهاجمها أسراب
الجراد ، وتلتهم الأغنام العشب أما طير الخطاف فيدفع الفلاح إلى الفاقة
والإملاق . وما تبقى من طحين داخل الجرن ، فهو لاستهلاك الفلاح
الخاص ، وهو معرض لسطو اللصوص ، ولتن ينخفض سعره فى
السوق . لقد نفقت البقرتان من شدة الإعياء ومن كثرة العمل فى الدرس
والحرث . ویرسو الكاتب بقاويه على شاطئ النهر ، ويحضر تسجيل
المحصول وفى معيته الحجاب الذين يحملون العصي ، والنربون الذين
يحملون جريد النخيل ويقولون : " إعطنا القمح ! " ولكن أين
القمح ؟ . فيوسعون الفلاح ضرباً ، ثم يشدون وثاقه ، ويلقون به فى
البنر ويغمرونه بالماء ورأسه إلى أسفل . كما توثق زوجته فى حضونه ،
ويربط أولاده . أما جيرانهم فقد تركوهم وحدهم ليواجهوا مصيرهم .
ويختفى القمح (...) " .

وما يشير دعشنا هو هذا الدور المشعوم الذى يضطلع به الكاتب .

وموقفه من الصورة القائمة التي تصور مصير الفلاحين . إنه لا يحرك ساكناً . بل ولا يخطر على باله أن يتأمل حقيقة مأساة ضحيته . ولا يألوا جهداً في إقناع الآخرين بسلامة موقفه حتى يصل به الأمر إلى موقف لا أخلاقى . إنه غير مهتد بأن يتعرض لمثل هذه المواقف المهينة . فهو لا يخضع للضريبة حيث كل الكتبة محفون منها .

وعلى عكس ما سبق ، فتماذج المراسلات التي يتدرب عليها الكتبة الشبان لا تعكس حقيقة أوضاع الفلاح كما وصفناها . وتصور النصوص وصول رسول القصر إلى إحدى ضباع الملك بالوجه البحرى ليتسلم في هدوء تام كميات ضخمة من الفاكهة ودنان النبيذ . كما يشير نص آخر إلى مذكرة مقدمة إلى رئيس محفوظات الخزينة حول أوضاع الأملاك وتفاصيل تنفيذ التعليمات بما يرضى المستولين . ويحكى نص ثالث يوميات الأعمال التي تجرى في جرن لدرس الحبوب . كما نحثرنا على المراسلات الحقيقية لأحد كبار الملك من الأسرة الحادية عشرة والتي تبادلها مع أحد ثقافته ، ليصف فيها الظروف القاسية التي تمر بها البلاد لتفشى المجاعة . ويتحدث عن توزيع حصص المواد الغذائية في أرجاء البلاد ، ضماناً لتولبر الحد الأدنى من الضروريات للجميع .

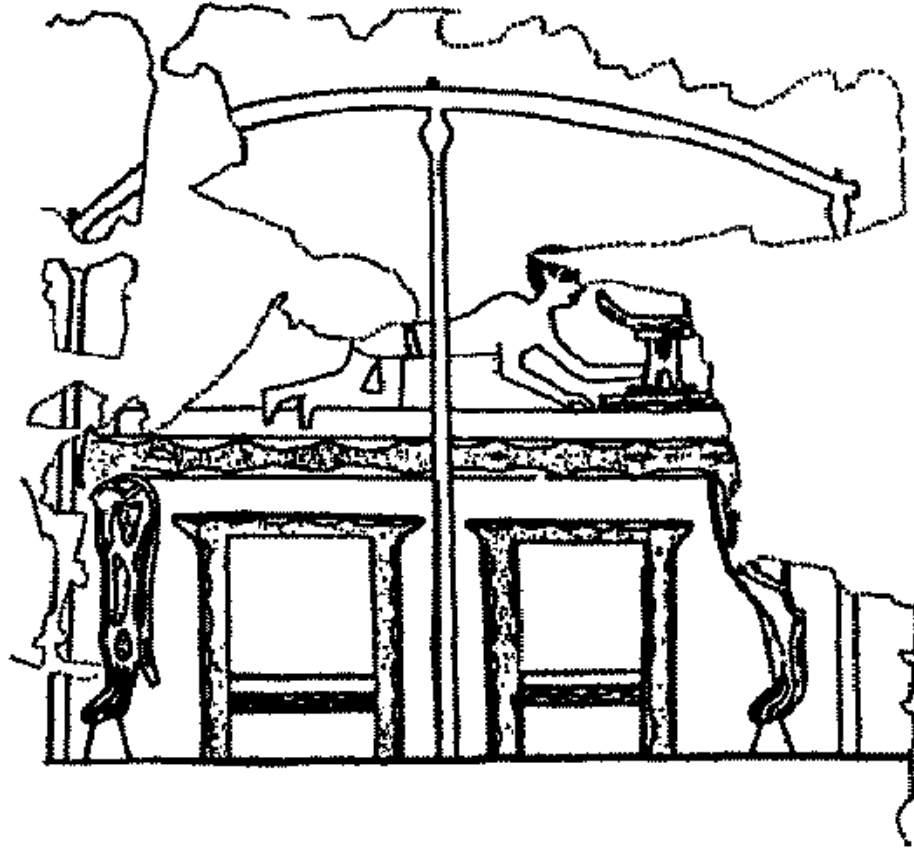
٥ - الخدم

كانت طائفة خدم المنازل فى مصر الفرعونية تضم عدداً من المهن ، نعتبرها نحن حرفاً فى عالم اليوم ، مثال ذلك صناعة الأغذية وصناعة النسيج . ولم ينتظم الخدم فى سلم وظيفى ، إذ كانوا يعملون جميعاً عند نفس رب البيت ، ومن ثم كان ينسحب عليهم ما لرب البيت من وضع اجتماعى ، مع إمكانية أن يرأسوا ، هم أيضاً ، غيرهم من العاملين الأقل منهم شأنًا . وبناء على ذلك فإن نفس الألقاب لم تكن بالضرورة تحمل نفس الدلالات ، كما لم يكن يترتب عليها نفس الأعباء . فالأمر يختلف باختلاف أصحابها ، فقد يكونون من رجال البلاط ، أو من العاملين عند أحد الأفراد ، أو من العبيد . ومع حلول الدولة الوسطى برز الأجانب وسط طائفة خدم المنازل كقوة متميزة ، وشغل الكنعانيون معظم هذه الوظائف . أما النساء فلم نتطرق إليهن حتى الآن من خلال ممارستهن الفعلية لوظيفة معينة ، ومع ذلك فقد كن يضلن عن دور سياسى بارز إذا اقتضت الضرورة ذلك ، إذ كن يتبوأن المناصب الاقتصادية والكهنوتية ، ولكنهن استخدمن بتوسع لى مضمار الخدمة المنزلية ، وكان يعهد إليهن بأعمال محددة لتحديدًا واضحاً .

ظلت نقوش المقابر وتصاويرها منذ مطلع الدولة القديمة ، المصدر الرئيسى لمعلوماتنا كما كان الحال بالنسبة للفلاحين ، وقد أضيفت إليها مجموعات ضخمة من النصب الحجرية التى ترجع إلى الدولة الوسطى . وفى مشاهد البلاط الملكى وريف مصر نتابع مناظر الحرف المرتبطة بالنشاط الزراعى ، والتى يزاولها الحرفيون فى ألفتية وديار العامه . وقد جاء ترتيبها بجرار مشاهد الحصاد وجمع المحاصيل ، فالطحاتون والحيازون وصناع الجعة يعملون على مقربة من مخازن القمح ، أما القصابون فيلذبحون الماشية ويسلخونها ويقطعونها على مسافة بضعة أمتار من

حظائر الحيوان . ونشاهد قطعاً من اللحم معلقة على الحبال لتجف . أو تشوى بعضها فوق الشوايات ، أو تسوى فى القدور على نار هادئة وفى مشاهد أخرى يحمل خدم المنازل الطعام والشراب إلى رب البيت ، فى حين ينصرف آخرون إلى مختلف الأعمال المنزلية . ويرتب بعضهم حجرة النوم والسرير . وقد لاحظنا من قبل أن المعاهد الجثنائية فى الأسرة الخامسة ، تقوم بتوظيف عاملين مدنيين لتجهيز الأطعمة ونقلها أو لتنظيف المفروشات ، وينفرد الكهنة بطقوس الملك المتولى وتقديم الأطعمة له ، فهذا من اختصاصهم وحدهم . كما أن التماذج التى اشتهرت بها مقابر الدولة الوسطى تمثل مختلف الأنشطة الحرفية الخاصة بصناعة الأغذية والنسيج . وهذه التصاویر أسرة بالمشاهد المسجلة على جدران المقابر ، تستهدف الإبقاء على حيوية ذكرى الضياع ، والأنشطة الزراعية وأنشطة الورش وغيرها .

وفى أيام الدولة الوسطى ، لم يقف الأمر عند حد ترحيب السادة بظهور الخدم والخدمات على جدران مقابرهم ، مع تسجيل أسمائهم ووظائفهم وأوضاعهم الاجتماعية ، بل اعتاد الخدم أن يشيدوا نصباً حجرية تخليداً للذكرى مخدوميهم . ويبدو أن العمل كان موزعاً بين فئتين رئيسيتين : فئة تضم " الخدم الوقوف " ، ومهمتهم الأساسية السهر على توفير ما يحتاجه رب البيت ، من تجهيزات وخدمات ، أما الفئة الأخرى فتضم " الخدم الجالسین " ، ومهمتهم توفير المأكل والمشرب والملبس . وينظر هذا التقسيم على قدر كبير من التعميم والتبسيط ، حتى أن الخروج عليه كان أمراً وارداً وشائعاً . وفى المعتاد يتميز الخدم الوقوف بأنهم بدناء ، وشاحبو البشرة وحلقاء الرأس . وكانوا يزاوون أعمالهم فى الجناح الخاص برب البيت ، أو فى الخزانة حيث تحفظ المقتنيات النفيسة كالمعادن والأدوات المعدنية من أسلحة وأواني ، بالإضافة إلى المفروشات والملابس والنعال . ثم الدهن والزيت وما شاهد ذلك . كما أن أعمال



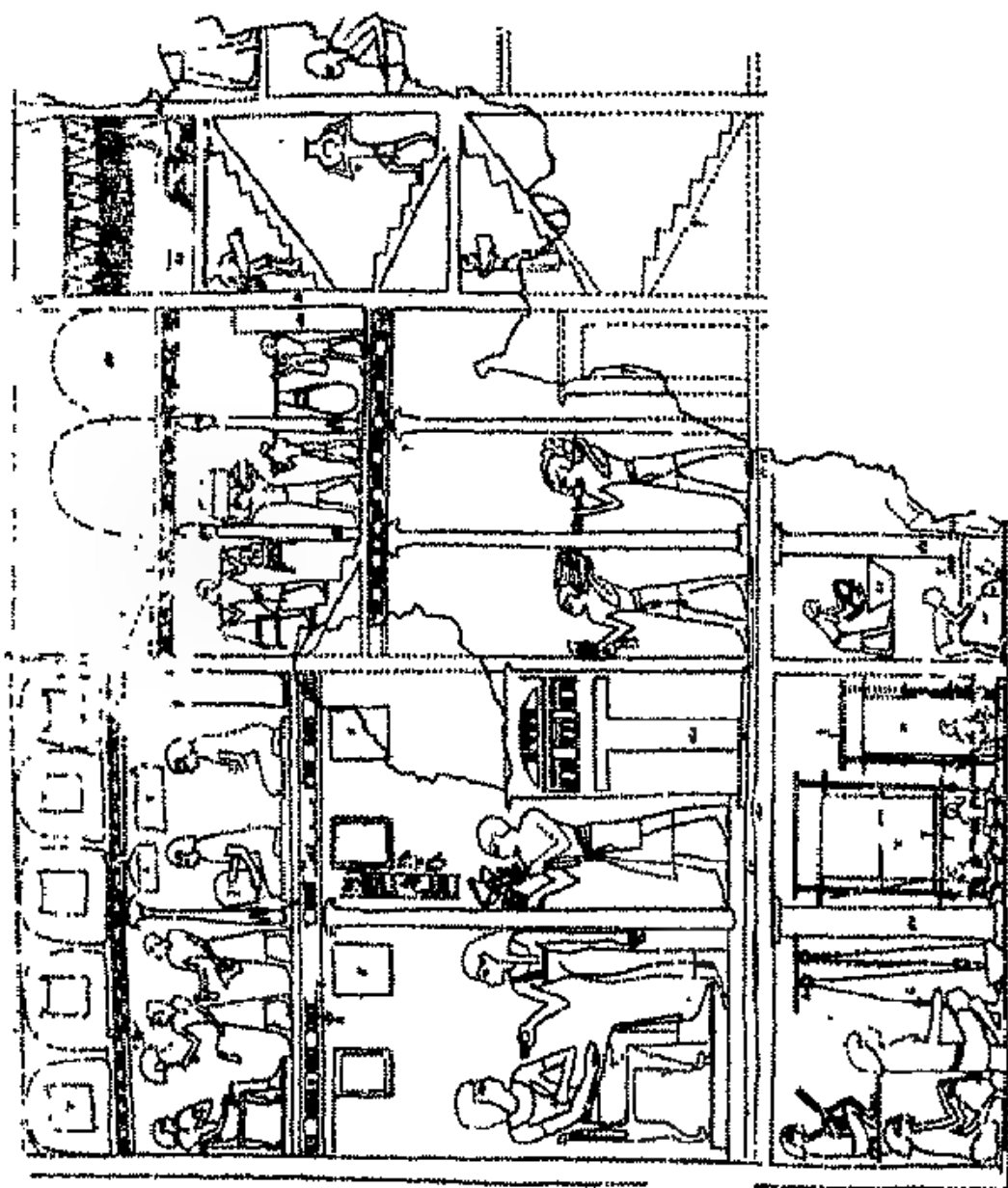
شكل ٤ : خادم يرتب سرير سيده . مشهد من مقبرة أوناس عنخ . قى طيبة . من الدولة القديمة .

(M. SALEH , Three Old Kingdom Tombs at Thebes , 1977

لوحة رقم ٤)

الفزل والنسيج والسكافة والتنظيف كانت من اختصاص هذه الإدارة التي يوجد لها مثيل في ممتلكات التاج وفي المعابد وفي منازل الأثرياء . وكان أصحاب الوظائف المختلفة يعيشون متجاورين متزاملين ، فكتاب التقارير ونظار الضياع والكتبة يعايشون المغنيين والموسقيين والخدم والبراهين ومنظفي الملابس . وتسهر النساء على زينة ربة البيت وخزائن ثيابها . أما المستولات عن حسن مظهرها وتصفيف شعرها فيجعلن المرايا والصناديق الصغيرة ، وبعضهن كن مرضعات أو خادمات للأطفال أو مكنيات .

وتعنى كلمة " شتمو " المطبخ والخزن أيضاً . إنه المكان المخصص لإعداد الأطعمة وحفظها ، ويضم المطبخ والمخبز ومعمل الخبزة والمليئة وأقبية التبييض وخزان المياه ومخازن حفظ الأسماك واللواكح وما شابه ذلك ، وفيه أيضاً تحفظ المفروشات ودفاتر الحسابات الخاصة بهذه الخدمات . ويقوم الخدم الملحقون بالمطبخ بإعداد الطعام ويقدمونه لرب البيت . ويحتل مشاهد تقديم المشروبات مكان الصدارة وسط مشاهد الحياة الخاصة . أما الخادومات اللاتي يشرفن على تقديم المشروبات ، فكن يجعلن شعورهن ، ويشددن رؤسهن بعصاهات مراعاة لصحة رب البيت وضيوفة . وتعمل النساء أيضاً في المطابخ والمخابز ، ويشرفن على طعن الدقيق بالرحى وتخلطه بالتاغل ثم إعداد عجينة الخبز الذي يصيبته في القوالب المخروطية المعدة لهذا الغرض . أما أقرانهن من الرجال ، فيقومون بنفس عمل النسوة . ويعدون أرغفة مستديرة أو مسطحة وتركوتها تنضج في أفران من نوع آخر . في حين يتولى غيرهم من الرجال جرش الحبوب في الأجران بمضارب خشبية .



شكل ٥ : منزل " جهوتي نفر " امر طيبة .
نقلا عن :

Egypt , (N. de Garis Davies , The Town House in Ancient
1929 , Fig 1 , P. 334 - 335)

فلنتأمل الرسم الذى يمثل مقطعاً طويلاً فى بيت " چھوتى نفر " * .
وهو من كبار موظفى أمنحوتب الثانى . يجمع الرسم بين عدد من هذه
الأنشطة الحرفية المنزلية فى إطار أسرى . وتبدأ بالطابق الواقع فى
معظمه تحت سطح الأرض ، وهو المخصص لصناعة النسيج . فيغزل
الرجال فى الحجرة الأولى ، وفى الثانية ، يجلسون أمام أنوال ضخمة
لنسيج الكتان ، وفى الحجرة الثالثة ، يقومون بأعمال النسيج . وفى
الطابق الأرضى نشاهد الخدم والخدامات وهم يحضرون الأوانى ، ويقدمون
القواكهة والزهور لرب البيت . وتزدهم السلالم بالخدم الذين ينقلون
الصناديق والجرار وقطع اللحم إلى الأدوار العليا . وفى الطابق الأول يجلس
رب البيت ، بينما يقدم له أحد الخدم الشراب ، ويتولى آخر ترطيب الجو
بهز مروحة . ويبدو أن رب البيت يلى أوامره وتعليماته لكاتبين راكعين
أمامه . وفوق سطح المنزل ، يشرف المعاسب على تسجيل المؤن الجارى
تسليمها . أما الجانب الأيمن من رسم الدار لمهشم تماماً ، ويفترض أنه
كان مخصصاً لقطاعات أخرى من الأنشطة . لا سيما بيت الحرم .

أما الأملاك الكبرى المنتشرة فى أرجاء المملكة فتظهر على جدران
مقابر كبار الموظفين الذين كانوا يشرعون عليها ويديرون شئونها ،
وتزدهم بجيش من الموظفين المجهولين الذين يعملون فى همة ونشاط .
وتصورهم المناظر وهم يخزنون المؤن أو يحضرون صنوف الأغذية
المحفوظة ، ويرتبون المفروشات عند خروجها من العرش . أو يوردون
يومياً الأغذية والأطعمة الضرورية واللازمة لاحتياجات أهل البيت .

* هو ملاحظ الخزانة والكاتب الملكى (أمنحوتب الثانى) والرسم المذكور موجود
فى مقبرته التى تحمل رقم ٨٠ بطيبة الغربية (المقبرم) .

الفصل الثالث

مستوى المعيشة ومظاهره

كانت الدروب التي تتيح للمصري القديم بلوغ عالم الشراء والأثرياء كثيرة ومتنوعة . فمهما كانت مهنته ، فإن أجره كان يمكنه في المعتاد من إيداع ما يكفيه للحصول على مقتنيات خاصة . وإضافة إلى ذلك ، كان يحدث في بعض الظروف أن يهبه الملك بعض المنح أو ينعم عليه بالهبات الخاصة كلفتة كريمة من جلالة تقديره لآثره ، عندئذ كان المصري يستثمر لحسابه الخاص ما يحصل عليه من أراض وقطعان ، ويستقطع من أرباحها تكاليف إغاشة العاملين في خدمته والضرائب المقرضة عليه والتي تقدر مرة في العام على أساس حجم المحصول . ومن ناحية أخرى فإذا كان والداه يمتلكان ثروة ضخمة ويتولى الإبن رعايتهما أحياءً ويسهر على ترتيبات دفنهما إذا وافتهما النية فقد يؤول إليه إرث تتراوح أهميته وفقاً لثراء الوالدين وعدد الأبناء الأحياء . وفي النهاية فإنه لو أتيت له الفرصة لمزاولة حرفة أو تجارة إلى جانب عمله الرسمي كان يتوفر له بذلك مورد إضافي لا يستهان به .

لقد وصلت إلينا بعض العقود القانونية المتعلقة بإجراءات البيع والقسم والوصاية ، التي تقن حيازة الملكية أو نقلها من شخص إلى آخر ، وإن كانت هذه العقود قليلة جداً بالمقارنة إلى ضخامة أعدادها المفترضة . ومع ذلك فإن هذا القدر القليل يوفر لنا معلومات حية عن موارد بعض العائلات والقيمة النسبية لممتلكاتها ، إذ كان يسجل بالضرورة قبالة كل ملكية ما يعادل قيمتها بمعادن البرونز أو الفضة أو الذهب . كان المصري القديم الميسور ينفق الكثير إما على رفايته ومتع الحياة أو إظهاراً للآخرين . وكان يكرس لهذا الغرض أموالاً طائلة . ونظراً لغيبة النقود فإنه كان يضطر أن يقدم منتجات تعادل الثمن المحدد لما يقتنيه أو يورثه . وكان يخصص الجزء الأكبر مما يمتلكه للإتفاق على تجهيز " دار الأبدية " وإعداد الأثاث الجنائزي ووقف موارد الأملاك الجنائزية للصرف منها على الشعائر التي يورث أن تقام تخليداً للذكاء بعد وفاته ، ولتشيد المقابر الجنائزية أو صناعة ما هو أقل تكلفة كالنصب

الحجرية أو التماثيل التي توضع في حرم المعبد المقدس في حماية أحد
الآلهة ورعايته ، وكان الحرم المقدس لمعبد أوزيريس إله الموتى بأبيدوس *
من الأماكن المفضلة لوضع هذه النصب . ومن هنا نستنتج أن المدفن
والأوقاف هما من أهم مظاهر الشراء في مصر الفرعونية . إنها رسالة
موجهة إلينا عبر الزمان السحيق تخبرنا بمآثر المتوفى وخصاله الحميدة
ومقتنياته المادية في إطناب واسترسال عن محباء وثروته وتعددتها .

* أبيدوس . هو الاسم اليوناني للمدينة المصرية القديمة " أهدو " التي كانت تضم قبر
الإله أوزيريس ، ويقع في المنطقة الرملية إلى الجنوب الغربي من " شن " وتشمل
أينفوس الآن القرى الأثنية ، الفاهات والعراة المنلوثة وهي متصورة (المترجم) .

١ - المقبرة والآثاث الجنائزي وعمائر تخليد الذكور

إذا تركنا جانباً عمارة القبر الملكي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أنها النموذج الأول المحتذى لمقابر الأفراد . ومع ذلك فقد تنوعت عمارة مقابر الأفراد باختلاف الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية . ففى بعض المقابر التى ترجع إلى بواكير الحضارة المصرية وقبل عصر الدولة القديمة كشفت الحفائر عن آثار تنم عن الرغبة الملحة التى دفعت المصرى إلى نقل أهم العناصر الضرورية لحياته على الأرض إلى المقبرة ضماناً لاستمرار الحياة الأخرى . لقد شيدت أولى المصاطب * بالطوب اللبن وأحيطت بسور له مشكاوات أى دخلات وأسية عميقة متعاقبة يعرف اصطلاحاً باسم " واجهة القصر " . ومن المتفق عليه على وجه العموم أن هذه المصاطب كانت قريبة الشبه بقصور أمراء ذلك العصر . ومع حلول الأسرة الثالثة أخذت المقابر تتميز عن المساكن من حيث بنائها والمواد المستخدمة فيها . فانتشر استخدام الحجر عند تشييد البناء العلوى من المصطبة . بل أقيمت بعض التشييدات المعمارية من أجود أنواع الحجر الجيري المثقل من محاجر طره أو من جرانيت أسوان أو من الألبستر الذى اشتهرت به منطقة حترى ** . الأمر الذى زاد من جمال المظهر وبهائه . وابتداء من الأسرة الرابعة أخذت نقوش المقبرة تسجل قصة بناء المقبرة أو وصول الباب الوهمى أو التابوت كمنحة من الملك أو هبة منه . وتدون هذه النقوش فى المقصورة الجنائزية أو على عتب باب المقصورة حتى يطالعها أقارب المتوفى والكهنة الجنائزيون عند حضورهم لتقديم القرابين اليومية .

* المقرد " مصطبة " وهو إسم اصطلاحى أطلق على المقابر الملكية فى بداية الأسرات وعلى مقابر الأفراد خاصة فى الدولة القديمة . (المراجع) .
** هو إسم محاجر الألبستر بينى سويل (المراجع) .

تقول إحدى هذه النقوش :

" المكان الذى شيدت فيه هذه المقبرة هبة من ملك الوجه القبلى والوجه البحرى الملك " منكاورع " ليحيا إلى الأبد . وحدث أن (جلالتك كان ير) بالطريق القريب من الهرم متفقدا أعمال تشييد هرمهسمى " منكاورع المقدس " وبينما كان عامل البناء (والتجار الملكى) والكاهنان الكبيران لمدينة منف والحرفيون ، كانوا جميعاً موجهدين لمباشرة أعمال تشييد المعبد (...) إذ بجلالتك يصدر أوامره لتسوية الأرض وإزالة الرديم المتخلف عن أعمال البناء (لتشييد) هسده المقبره " .

ورغم ما يتخلل باقى النص من فجوات إلا أن ما تبقى لنا من أجزاء توضح أن الملك كلف أمين خزانة الإله بإحضار الحجر الجيرى اللازم لكسوة معبده الجنائزى من محاجر طره ، وأن يحضر معهما باهين وهمين وملحقاتهما لمقبرة " دهننى " . وقد شهدت المصطبة تحت إشراف مهندس الملك شخصياً ، وصدر بذلك مرسوم ملكى . وكانت أبعاد المصطبة * ١٠٠ ذراع * طرلاً و ٥٠ ذراعاً عرضاً أى ما يساوى حوالى ١٢٥٠ متراً مربعاً ، وكان ارتفاعها يناهز ٤ أمتار .

وهكذا انتشرت فوق هضبة الصحراء الغربية مدن وأحياء كاملة من المصاطب التى شيدت حول أهرامات دهشور والجيزة وأبو صير وسقارة** وصارت المشوى الأخير لماتلات من رجال الهلاط . أما فى أقاليم مصر

* يساوى الذراع المصرى ٢ ، ٥٢ سم . (المترجم) .

** إذا أردنا ترتيب هذه المناطق من الشمال إلى الجنوب كانت على النحو التالى :
الجزيرة ، أبو صير ، سقارة ثم دهشور (المترجم) .

فقد ظهر طراز آخر من المداخل أخذ يتنافس الطراز الأول . لقد نقرت المقابر الجديدة على امتداد الوادى فى الهضبة الصخرية المتاخمة للجبل فى بعض المواقع . وقد ابتدع حكام الأقالييم تخطيطاً جديداً أو مختلفاً تماماً لمقابرهم الصخرية ، إذ تبدو عمارة المصطبة ككتلة ضخمة تضم الجزء العلوى من البناء ، وتتكون من صفة صغيرة تفضى إلى فناء . وتتكون المقصورة الجنائزية من عدة من الحجرات لكل منها وظيفتها الخاصة . وكان السرداب المفلق يحتوى على تمثال قريب الشبه بالمتوفى . وأسفل هذا الجزء العلوى من المقبرة توجد حجرة دفن واحدة أو أكثر تصل إليها من خلال بئر . أما المقابر الصخرية فيتقدمها فناء أو فناءان إذا توفر المكان . وقد يوجد علاوة على ذلك درج فخم كمدخل للمقبرة ، وقد تزدان واجهة المقبرة بياكبة فخمة ، أما قاعات المقصورة وحجرة الدفن فقد نقرت فى صخر الجبل . واعتمد المصريون هذين النمطين المعماريين معاً عبر مختلف عصور التاريخ الفرعونى سواء فى الجبهة الملكية أو فى المقابر المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . كما ظهرت مقابر جمعت بين عناصر النمطين أو اشتهرت مع مرور الزمن إضافات جديدة كان من أبرزها الهرم الذى يوضع فوق المقصورة . ويبدو أن هذا الهرم ظهر أولاً ما ظهر فى طيبة فى عصر الأسرة الحادية عشرة ، وانتشر انتشاراً كبيراً فى ظل الدولة الحديثة . كما شاع استخدامه فى أبسط الطبقات .

وعندما كانت جدران المقابر المشيدة أو المنقورة فى الصخر تخلو من مناظر تقدمه القرايين أو مناظر الطقوس والشعائر الجنائزية ، كانت تسجل ، وهنا بالطبع طبقاً لقواعد العصر ، بنص أو بصورة مرفقة بتعليق قصير أملاك المتوفى والأنشطة الوظيفية وغيرها ، هنا بالإضافة لبعض مظاهر سلطته وسلطانه وما شارك فيه أو عاصره من أحداث مهمة . وأخيراً كان يصور أفراد أسرته وأصدقائه ووفائه وزوجاته ومملوكوه . حقاً إن المقبرة لتعبر صادق عن ثراء صاحبها بالنظر إلى

أطوالها ومساحتها ومستوى نقوشها وحيوية رسومها . ويضاف إلى كل ذلك ما لذ وطاب من صنوف الطعام . واضح من ذلك أن ثراء المتوفى وراء إعداد هذه المقبرة وتجهيزها ، فالمقبرة هي البرهان الحى على الكفاة التى تنتظر كل صاحب فضيلة ، والجائزة التى تمنح لمن عاش حياة حافلة بالنجاح ، وهى من النعم التى لا يقوز بها إلا من استحقها عن جدارة . ولا يقف الأمر عند جماله عمارة الجزء المرنى أو المتاح للزيارة من المقبرة والمواد المستخدمة فيه أو الزخارف المنتشرة على جدرانه ، بل إنه يمتد إلى أعماق حجرة الدفن والأثاث الجنائزى . كان الاعتقاد السائد أن فخامة البناء العلوى ، وهو الجزء الظاهر من المقبرة ، يعنى أنها تحوى كل ثمين ونفيس ، فصار من الصعب مقاومة إغراءات السلب والنهب . وليس من قبيل الصدف أن المقابر التى سلمت من أيدى اللصوص هى المقابر التى ضاعت معالم مداخلها ، أو لعبت الظروف والصدف دوراً فى إخفائها وطمسها . ومع بداية الدولة الحديثة كان أثاث المقبرة يتكون من عناصر جنائزية كالتوابيت وأوانى الأحشاء وتماثيل المجاوب * هذا إلى جانب " كتاب الموتى " بالإضافة إلى كل ما يحتاجه المتوفى لاستعماله اليومى من أثاث منزلى وملابس وأدوات زيتة وآلات وأطعمة وأوانى . وإذا كان المتوفى من الأثرياء وضع بجانبه فى المقبرة بعض القطع الشبيهة من تماثيل خشبية وأحجار كريمة ومعدن أو أوانى ذهبية أو فضية أو برونزية إلخ ... وعند إتمام المراسم الجنائزية ، كان حاملو الأثاث الجنائزى يسرون فى موكب مهيب خلف الجثمان الذى يحمل الدليل القاطع على نوعية التحنيط التى فاز بها المتوفى . فالتحنيط أنواع : النوع الأول وهو أجودها ، ويتم على خطوات على النحو التالى :

* وهى المعروفة اصطلاحاً باسم " أو شبتى " أو " شاورتى " وهى تماثيل الخدم التى تسهر على خدمة المتوفى . وبلغت أعداد هذه التماثيل عدة مئات فى بعض المقابر (المترجم) .

استخراج المخ والأحشاء * ثم إحلال المواد العطرية محلها ثم توضع الجثة في ملح النطرون لمدة سبعين يوماً . أما أبسط أنواع التحنيط فيكتفى بتشجيف الجثة باستخدام مواد راتنجية . ثم تلف بلفائف من الكتان تتراوح رقتها حسب نوعية ودرجة التحنيط .

ولم ينحصر اهتمام المصري في الحفاظ على البدن في بيئة مريحة آمنة إذا واقته النية ، فاستمرار الحياة بعد الوفاة يحتاج إلى إمداده بالمأكل والشراب بانتظام ، والقيام ببعض الشعائر وذلك استمراراً لممارسة الغم والألف لوظائفهما الحيوية . ومن الأحبة بكان ألا يتوقف النطق باسم المتوفى على مر الزمان . فحتى يصل المصري إلى هدفه المنشود كان لزماً عليه أن يوقف ريعاً أو دخلاً ثابتاً للصرف على من يقومون بخدمته بعد وفاته ، وذلك بعد أن لم يعد في استطاعته أن يأمرهم بذلك . أو أن يعتمد على تقوى أهل بيته . لقد حفر المصري القديم عند مداخل المقابر دعاء موجهاً إلى الأحياء لاستشارة حميتهم . ولضمان استمرار الحياة بعد الموت ، ظن المصري أن الإرتكان إلى الآلهة أفضل من الاعتماد على الكهنة . فخلد ذكره بأن أقام المبانى في المعابد التي شيدت في مسقط رأسه ، أو أقامها في أبيدوس خلال رحلاته المتكررة إلى المدينة المقدسة للحج والتبرك . ومن نماذج هذه المبانى التماثيل التي أقيمت كمظهر للتضرع والتقوى أو النصب الحجرية التي تضم مناظر لعدد من أفراد أسرته أو المترين إليه ومعاونيه .

* يستخرج المخ عادة عن طريق الألف وأحياناً عن طريق الثقب الأعظم أما الأحشاء فتستخرج عن طريق شق البطن (المترجم)

٢ - الناس

إنه لمن الصعب إمالة اللثام عن الطوائف المنظمة لعمل الموظفين الذين تشاهدهم على جدران المقابر وهم يزاولون الأنشطة المتعددة والمتنوعة في خدمة السيد أو في الحقول أو في الورش أو في الأجنحة المخصصة لتوفير الخدمات المنزلية ، وذلك لأن العديد منهم موظفون ملكيون . هذا بالإضافة إلى أننا ما زلنا نجهل ظروف تواجدهم لدى الأفراد العاديين : هل هو وجود مؤقت لإنجاز مهمة محددة ، أو أنهم ملحقون بملكية خاصة . فتصبح أوضاعهم شبيهة بأوضاعهم كموظفين في أملاك التاج أو في وقف ديني ، وإذا تولى رب الأسرة فهل يخضعون لسلطة الزوجة أم الإبن الأكبر ؟ . ولا تسعفنا أي نصوص قانونية توضح أوضاع هؤلاء الرعايا . ومن دراستنا لبعض الحالات الفردية نستنتج عدم وجود قواعد عامة مطلقة وثابتة لتنظيم هذه الأوضاع وأن توزيع هؤلاء الموظفين للعمل في أرجاء المملكة رهن باتفاقيات خاصة تبرمها السلطات مع الأعيان الراغبين في استخدام هذه الفئة من العمالة . وأياً كان الأمر فمن المؤكد أن هؤلاء الموظفين لم يكونوا ملكاً لخدمتهم .

أما الأفراد الذين حرّموا من حريتهم بحكم قضائي ، والأجانب أسرى الممارك الحربية خارج البلاد ، فإن أوضاعهم كانت جد مختلفة . لقد حفظ لنا الزمن ملفاً يرجع إلى الأسرة الثالثة عشر يحدد حقوق السيدة " سنب تيسى " على جماعة مستترقة مكونة من ٩٥ فرداً . ويحوى الملف مقتطفات من سجل استقبال النزلاء في السجن الكبير في طيبة ، ويرجع تاريخه إلى الأسره السابقة ويشمل على معلومات قيمة عن هؤلاء الأفراد . فيذكر اسم كل منهم وأحياناً وظيفته والتهمة التي أدین بسببها . وتحت أيدينا محضر يعق بموجبه لناظر الخناع " حا عنخ أف " أن يتصرف كما يشاء حيال هؤلاء الرجال والنساء على السواء .

وينتقل هذا الحق إلى زوجته من بعده . وترجع إلى نفس العصر محفوظات مدينة سنسرت الثانى الهرمية بالفيوم التى حوت على العديد من وثائق القسمة ، منها ما يشبه وثيقة قانونية تحتوى على وصيتين متلاحقتين :
تقول الوصية الأولى :

* عقد ملكية حروء أمين الخزانة ورئيس إنشاءات المدينة الشمالية المدعو " إىحى سنب " وشهرته " عنخ رن " بن " شبت " : جميع أملاكى ، ما كان منها بالريف وبالمدينة ، أتركها لأخى " إىحى سنب " وشهرته " وأحو " بن " شبت " ، الكاهن فى جماعة الإله سوبد * رب الشرق . وأودعت صورة الوصية فى مكتب نائب الجنوب فى العام ٤٤ ، الشهر الثانى من فصل الصيف ، اليوم الثالث عشر .

أما الوصية الثانية فتقول :

" العام الثانى ، الشهر الثانى من فصل الربيع ، اليوم الثامن عشر ، عقد قملك ، حروء الكاهن " إىحى سنب " فى جماعة سوبد رب الشرق : إنى أحرر عقد قملك لصالح زوجتى " شفت " وشهرتها " تيتى " إبنة * سات سوبد * فجميع الممتلكات التى أعطتها إياى أخى " عنخ رن " أمين الخزانة ورئيس الإنشاءات (..) وجميع آنية المائدة التى ورثتها عن أخى ، فمن حق زوجتى أن تمتنحها لمن تشاء ، من أبنائها الذين أنجبتهم منى . وأهبها أيضاً الأسويين الأربعة الذين ورثتهم عن أخى ... لكى تعطبهم لمن تشاء من أولادها . أما مقبرتى فأود أن أدفن فيها مع زوجتى . ولا يدفن أحد آخر معنا . أما القبائى التى ورثتها عن أخى فلتسكنها زوجتى ولا يحق لأحد أن يطردها منها (..) " .

* هو إله الإقليم العشرين من أقاليم الدلتا . وكان المركز الرئيسى لعبادته صلف الحنة الحالية (المترجم) .

لقد جاء ذكر العاملين المسترقين مباشرة بعد الممتلكات ، كما ورد
تماماً في قصة " الواحى " * . ومن الملاحظ أن صورة الوثيقة الأولى
مرفقة بروثيقة الملكية الثانية تأكيداً لحق صاحبة الرصية في التصرف في
الأموال المعنية .

وإلى جانب ما سبق ذكره ، وصلنا من عهد ومسيس الثاني محضر
وصية يحتوى على بنود عقد بيع فتاة سورية ، وتتضمن الوثيقة أيضاً
مقايضة عهد مقابل مقبرة من مقابر طيبة .

بنود عقد بيع الفتاة السورية :

" في العام الخامس عشر ، وبعد إنتضاء سبع سنوات على زواجى
من سا (موت) رئيس المدينة حضر التاجر رايا وفى صحبته الجارية
السورية " جيمتى حرى مننت " وحدثنى قائلاً : لقد وجدتُها في
الغرب . وكانت طفلة آنذاك . واستطرد قائلاً : " اشترى الفتاة وأعطينى
ثمنها . فاشتريت الفتاة ودفعت ثمنها . والآن أعرض على القضاء
السعر الذى دفعته للحصول عليها . "

وتسرد بنود العقد تفاصيل ما قدمته السيدة للحصول على هذه
الجارية . لقد قدمت سبع ثياب أو قطع نسيج كانت في حوزتها ،
وأضافت إليها خمس أوان برونزية وتسعة كيلو جرامات نحاس وجرة
عسل وعشرة سراويل حصلت عليهم من ستة أشخاص مختلفين . وإذا
جمعنا قيمة كل ذلك لوجدنا أنها دفعت ما يعادل تقريباً ٣٧٥ جراماً من
الفضة للحصول على الجارية الشابة . أما المقبرة التى تم مقايضتها بعهد

* وهي القصة المشهورة المعروفة اصطلاحاً بعنوان " الفلاح النسيج " (المترجم) .

فلم تحدد الوثيقة قيمتها . ولكن وصلتنا شهادة حية لعهد آخر من عهد رمسيس الحادى عشر إذ يقول أن صاحبه قد اشترى مقابل ما يناهز تقريباً ١٨٢ جراماً من الفضة . وفى نفس التاريخ تم شراء امرأة مقابل حوالى ٣٧٥ جراماً من الفضة .

كانت هذه الوثائق قليلة ونادرة فى العصور السابقة على العصر المتأخر . ولكن يعتبر وجود العبيد بأعداد متفاوتة ضمن تركات الأفراد من الأمور العادية والشائعة فى أيام الدولة الحديثة فى الشرائع الاجتماعية ذات الأصول المتواضعة : كالأب الإلهى أو البستاني أو عامل الجبانة أو حتى الأجانب

٣- العقارات

خلف لنا عصر الدولة القديمة عدداً من عقود بيع المنازل ، منها عقد محقود على نصب حجرى كان ينهض على مقربة من العقار ، ولكن العلماء الذين ترجموا هذا النص لم يتفقوا على طبيعة هذا العقار . هل هو منزل أم مقبرة ؟ وظل السؤال المطروح دون جواب شاف . ولا يذكر النص أطوال المبنى . أما ثمنه فيعادل ١٠ شعتى * تم تسديدها بواسطة قطع نسيج وسرير . وتم الكشف عن عقدين آخرين محررين على ورق البردى ، فى قرية جبلين فى صعيد مصر ، ويعود تاريخهما إلى أواخر الأسرة الرابعة . يتضمن العقد الأول بيع مبنى طوله ١٦ ذراعاً وعرضه ١٥ ذراعاً لتصبح مساحته زهاء ٥٦ متراً مربعاً وتم مقايضته مقابل ٥ ر ١٥ ذراعاً من النسيج ، ولم تحدد قيمته المعدنية . أما أطوال المبنى الآخر كما وردت فى العقد الثانى فهى ١٦ ذراعاً فى ١١ ذراعاً أو حوالى ٤٠ متراً مربعاً ، وتم مقايضته مقابل ٢٤ ذراعاً من النسيج .

ولا يوجد تحت أيدينا عناصر موازنة ومقارنة معاصرة لعقود البيع هذه تساعدنا على تحديد القيمة المطلقة لهذه الممتلكات . وقد وصلتنا نصوص متنوعة من مختلف العصور تشير بشيء من الوضوح إلى تشييد المنازل وإقامة الأسلاك . إن " وثائق أعمال متن *** المستخرجة من السجلات الرسمية تؤكد أن حقوق المالك تمتد

* الشعتى يعادل ١٢/١ دين والدين يعادل ٩١ جراماً . (المترجم) .
** وهو من كبار موظفى الدولة القديمة . ترقى فى مراتب السلم الوظيفى من أدنى الدرجات حتى بلغ أرقى المناصب . (المترجم) .

إلى عدد من الأوقاف ذات الأغراض الخيرية . وتعتبر هذه الوثائق حتى الآن أقدم مجموعة نصوص قانونية . فهي ترجع إلى أواخر الأسرة الثالثة وتحدد مساحة كل وقف وموقعه الجغرافى .

وقد ورد فى وصف أحد الأملاك ما يلى :
" طول الأرض ٢٠٠ ذراعاً وعرضها ٢٠٠ ذراعاً - أى حوالى ٤ هكتارات * . ومسورة وزرعت أشجاراً جميلة . وجهزت أيضاً بحوض مسبح وزرعت بجواره أشجار تين وكروم عنب " .

وفى مدينة سنوسرت الثانى الهرمية عند اللاهون توجد لوحة حجرية تشير إلى أربعة منازل ذات مساحات متساوية وأبعاد كل منها ٣٠ فى ٢٠ ذراعاً ، أى حوالى ١٥٠ متراً مربعاً . وقد وصلتنا شهادة حية من الأسرة الثامنة عشرة ، هى عبارة عن خطاب موجه من أحد حكام الأقاليم لرئيس الإنشاءات ويقول فيه :

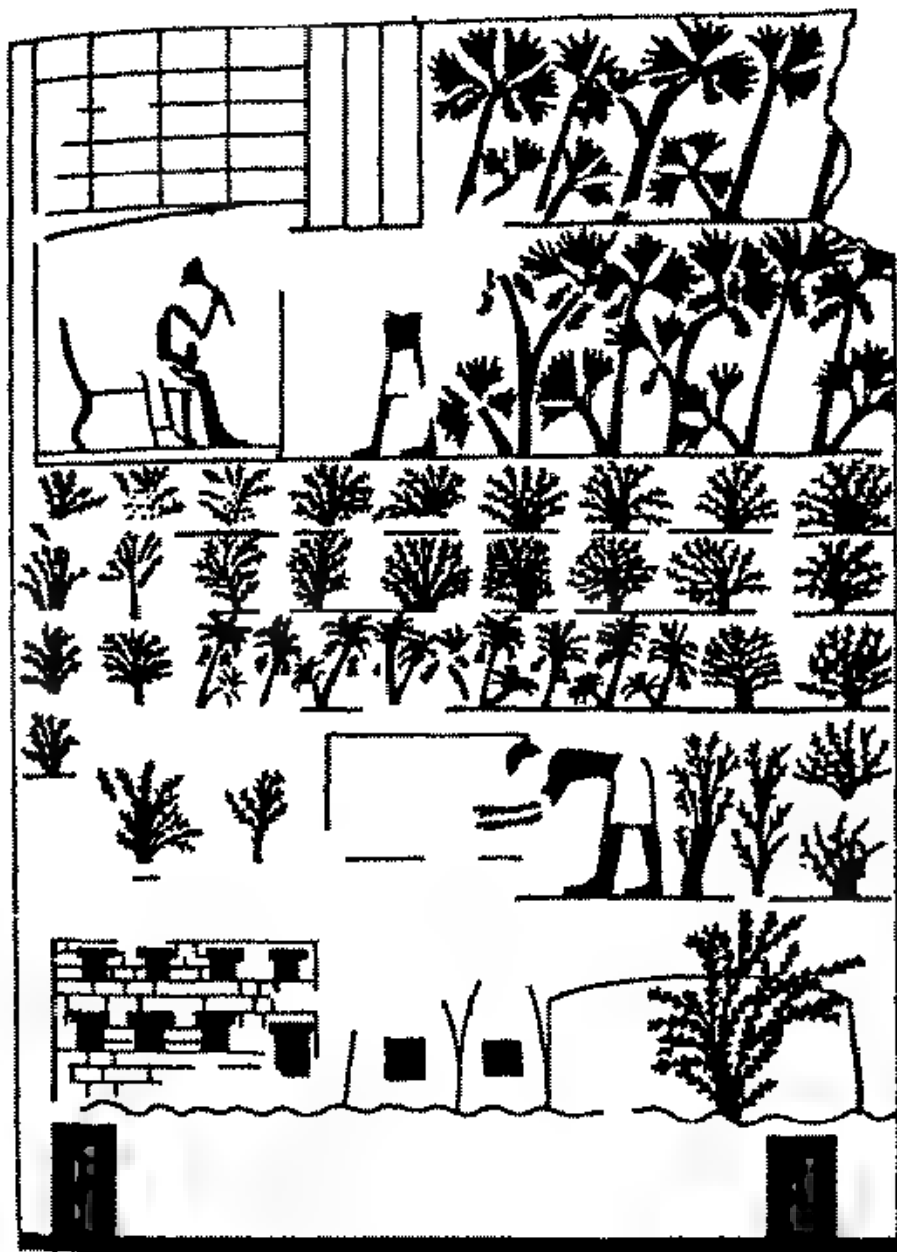
" (...) ضع المحصر والعوارض الخشبية اللازمة للمخازن والجزء الخلقى من المنزل . فليكن ارتفاع الجدار ٦ أذرع - أما أبواب المخازن فليكن ارتفاعها ٥ أذرع . أما أبواب الدار فليكن ارتفاعها ٦ أذرع . وعليك أن تبلغ هذه التعليمات أيضاً إلى عامل البناء . ونبه عليه بسرعة الانتهاء من بناء المسكن (...) وسوف أهلك بالارتفاع الإجمالى للمبنى وعرضه (...) وأخيراً سدد ثمن أرض المنزل لمالكها . وأعلم أنى لا أود التمرض لمضايقاته عند حضورى " .
ولأسف لم يحدد الخطاب ثمن الأرض .

* أى حوالى ١ ٣/٢ فداناً (المترجم) .

ومع بداية الدولة الحديثة ، ظهرت على جدران المقابر مشاهد المساكن في إطارها الطبيعي من حدائق وبساتين .

ففي مقبرة " أنيني " الذي كان مهندس أممحتوب الأول والتحامسة * ، تم تخصيص جسددار كامل من مقصوراته الجنائزية لمشاهد بيته الريفى . فنرى في مقدمة المشهد جداراً من طين به باهان ، وقمة الجدار غير مستوية وتتخذ خطاً متعرجاً . لقد كشفت أعمال التنقيب في أرجاء مصر والنوبة عن جدران مماثلة . ويخفى الجدار الجانب الأسفل من المسكن ومخزين للفلال ومبنى منخماً أبيض ذا سقف على شكل قبة ، يتوارى خلف شجرة جميز . ويبدو لأول وهلة أن المسكن قد شيد بكتل منخدة من الحجر الجيري . ولا غرو في ذلك ، إذا أدخلنا في الاعتبار العناصر الفخمة التي شيدها المهندس أنيني في طيبة لسادته ملوك مصر . بيد أن الأمر ينطوى على مفارقة إذا لاحظنا أن القصور الملكية ذاتها قد شيدت بالطوب اللبن ، ولا تشتعل على الحجر سوى في بعض العناصر المعمارية . فاحتمال استخدام الحجر في تشييد مسكن أنيني يبدو إسرافاً وترفاً لا مبرر له . ومن ناحية أخرى . فقد لقي قيام الرسام بتقليد الخشب والحجر في رسوماته رواجاً وإقبالاً . نخلص مما سبق أن ما تشاهده هو مجرد رسم يمثل خطوط التقاء الحجر ، وقد صوره على خلفية مطلية بالجير الأبيض . وللمسكن طابق علوى ، ولكن المبنى بدون سطح . أما الصف الثانى من المشهد فيصور حوضاً محاطاً بشجيرات مرتبة في تناسق تام . أما مناظر الصفوف التالية ، فتوحى بمشاهد تثل حقلاً زرع بالخضروات مع غابة نخيل . وقد سجل

* مئبرته رقم ٨١ في جباله الشيخ عبد القرنة في طيبة الغربية وكان من كبار الموظفين في عهد أممحتوب الأول وحتى عهد تحوتس الثالث . (المترجم) .



شكل ٦ : حديقة ومنزل " أنيسر " . مشهد من مغبرته في طيبة .

بالتفصيل عدد المجموعات النباتية التى تجود بها الأرض حسب نوعيتها
على شكل قائمة بها ٢٧٠ مجموعة و ١٢ قدماً من الكروم .

ولقد وصلتنا رسومات على قدر من التبسيط مثل واجهة المساكن ،
أو مقطع طولى يظهر ما بداخل المسكن . كما كشفت الحفائر عن نماذج
لمساكن الحضر والريف صنعت من الطين أو الخشب أو الحجر الجيري ،
وهى مكونة من طابق أرضى فحسب ، أو من طابق علوى وسطح . وهذه
الرسومات وهذه النماذج تساعد على فهم البقايا العديدة للمساكن التى
كشفت عنها أعمال التنقيب فى بيئات مختلفة ومتنوعة .

ويصعب التمييز بين المنازل التى خصصت لشاغلها بعد دخولهم فى
خدمة رب البيت ، وتلك التى تعتبر ملكية خاصة حقيقية . أما المنازل
التي شيدت فى حرم أملاك الأوقاف الملكية أو الدينية ومساكن خدم
المنازل ، فأمرها واضح ولا لبس فيه . ولكن ماذا نقول عن البيت الريفى
الذى خصص للكاتب فى مسقط رأسه مكاناً له على تفرقه . أما المنازل
التي أقيمت فى وسط مدينة تل العمارنة فكيف تصنفها ؟ أياً كان
الأمر ، فسواء اعتبرناها مساكن مخصصة لكبار الموظفين أو مساكن
خاصة ، فمما لا شك فيه أنها مساكن فسيحة وفخمة وتعتبر شاهداً على
مستوى اجتماعى رفيع وما يقتضيه من ثراء . كما أن العقود التى
حفظها لنا الزمن لا تخص فى المعتاد المساكن المملوكة للأفراد أو المبانى
الفخمة . إنما تتعلق بالأكواخ والمخازن ومختلف المباني الملحقة والمقاصير
الجنائزية ومقاصير الأعياد ، وكذلك قطع الأرض الصغيرة التى تتراوح
قيمتها بين دهن واحد أو خمسة دنانير من النحاس ، أو ما يعادل كيلو
جراماً واحداً أو أربعة كيلوجرامات ونصف .

٤ - الممتلكات المنتجة : الأراضي والماشى .

عند الحديث عن الممتلكات المنتجة ينهض التمييز بين نوعين : الأول ويشمل الأملاك الكبرى وقطعان الماشية الكبيرة العدد التى يستغلها أصحابها استغلالاً مباشراً ، والتى لا تدخل فى زمام أملاك الأرقاء أو التاج . أما النوع الآخر فيشمل قطع الأرض الصغيرة التى لا تتعدى مساحتها عدة أرويات * ، أو رؤوس الماشية التى فى حيازة الفلاح أو أى فئة أخرى من السكان . ويتم استغلال هذا النوع من الملكية الصغيرة بواسطة أصحابها مباشرة . كما إن بنود العقود وراثت الموارث لا تنص صراحة على قيمة الأملاك العقارية الضخمة . فالوثائق القانونية الأصلية التى بين أيدينا يتركز تنظيمها حول الأنشطة المتواضعة . أما النصوص المختارة التى تم تسجيلها على النصب الحجرية أو جدران المقابر فقد تشير إلى الضياع الكبرى والقطعان الضخمة ولكن من غير تحديد أسعارها . ونفس الشيء ينطبق على الهبات الكبرى كذلك التى وردت فى بردية هارس ** . إن أقدم تقييم موثوق فيه لأسعار الأرض قبل العصر المتأخر يرجع إلى عهد تحوتس الثالث : للأرض التى تبلغ مساحتها أروا واحدة تساوى ١٥ جراماً من الفضة وهو سعر بخس جداً ، بالمقارنة بأسعار العبيد ، التى سبق الإشارة إليها والأغنام . إن عقود بيع الحيوانات متوفرة بأعداد معقولة . ولكن كل عقد لا يختص إلا بعدد محدود من رؤوس الماشية . ويبدو أن سعر الثور

* أرويات : جمع أروا وهو الاسم الإغريق لوحدة المساحة المصرية : السثا . وتعادل السثا المصرية ٢٧٢٥ متراً مربعاً أى الفدان يساوى واحد ونصف سثا (المترجم) .
** بردية هارس هى أطول بردية معروفة إلى الآن ولها قام وميسس الرابع بجميع قائمة بكل هبات وميسس الثالث إلى معابد الآلهة المختلفة . (المترجم) .

أو البقرة في الأسرة الثامنة عشرة كان يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ جراماً من الفضة . أما في عصر الرعامسة فكان سعر أحد الأنتباع لا يقل عن ٢٧ جراماً ولا يزيد عن ٣٦ جراماً ، بينما سعر الثور يناهز ١٢٨ جراماً من الفضة . إن هذه الأسعار المبالغ فيها والتي تتجاوز بكثير إمكانيات المشترين تفسر في أغلب الظن ما اعتاده القوم من شراء بهيمة أو قطيع بأكمله بالمشاركة فيما بينهم . وفي نفس الفترة كان سعر الحمار الواحد يتراوح بين ٢٣ و ٣٦ جراماً من الفضة والخنزير بين ٤ و ٦ جرامات ، والعنزة بين جرام واحد و ٣ جرامات ، وذلك حسب عمر الحيوان وحجمه . ولو عقدنا مقارنة بين أرقام عصور مختلفة أو في حدود فترة زمنية واحدة للاعتناء فروقاً هامة في الأسعار . وترجع هذه الفروق إلى تسعيرة الحبوب المرتبطة بمستوى الفيضان . وهذا التفاوت في الأسعار يبدو ضخماً جداً عند مقارنة أسعار فترة الرعامسة وحدها . ومن الأهمية بمكان توخي الحذر عند مقارنة الأسعار . فتقلب الأوضاع الاقتصادية في البلاد بين عهد وآخر هو الذي يفسر هذه الفروق الملحوظة في الأسعار . لقد تضاعفت أسعار الحبوب ما بين ثلاث أو خمس مرات بين عهدي رمسيس الثالث ورمسيس السابع ، ثم انخفضت إلى النصف بين عهدي رمسيس التاسع ورمسيس الحادي عشر . وعلى العكس يمكن مقارنة المقننات التي يتم مبادلتها في معاملة تجارية واحدة . ومثال ذلك ما حدث في عهد تحوتس الثالث ، من مبادلة ٣ أرويات من الأرض ببقرة واحدة التي تحدد ثمنها بخمسة وأربعين ونصف جراماً من الفضة . وعلى أساس المعلومات المستمدة من الوثقتين الوحيدتين اللتين وصلتا إلينا ، يمكن القول أن قيمة الأرض ظلت ثابتة طوال عهد امنحوتب الرابع . وكان متوسط المحصول يقدر بعشر غراتر وذلك على امتداد التاريخ الفرعوني كله . وظلت تسعيرته ثابتة في عهد تحوتس الثالث . ومن ناحية أخرى كانت المقارنة بين سعر الأرض وقيمة ما تدره من محصول في عصر الرعامسة أمراً يصعب التأكد منه في حدود السنة الواحدة ، حتى لو احتسبنا قيمة المحصول قبل استقطاع الضرائب والبذور اللازمة لزراعة السنة التالية وإيجار الأرض - إذا كانت مستأجرة ، ومع أن عصر

الرعامة كان غنياً بالمعلومات عن سعر الحبوب ، إلا أنه لم يذكر شيئاً
عن أسعار الأرض الزراعية .

٥ - المعادن والكماليات

كان سعر الحبوب ، إذن ، يستخدم أساساً لتقييم بعض الممتلكات وما تنتجه من مواد غذائية . ولكن مع اتساع حجم المعاملات التجارية استخدمت المعادن ولا سيما النحاس والفضة في تقييم السلع المتبادلة . وهنا أيضاً الجلود مطلوبة . فقد تغير سعر المعادن على مرّ الزمان . ودلالة ذلك في الممارسة العملية هو اختلاف المقادير المتعادلة عند تبادل هذه المعادن . لقد انخفض سعر الذهب انخفاضاً ملحوظاً في عهد امنحوتب الثاني ، ومن الواضح أن هذا الانخفاض كان يعود إلى تدفق الثروات مع ما حققته مصر من انتصارات في آسيا . وارتفع سعر النحاس ارتفاعاً طفيفاً في أواخر حكم رمسيس التاسع . ومع ذلك فإن الفترة الممتدة من بداية الدولة الوسطى وحتى أواخر الدولة الحديثة قد شهدت استقراراً واضحاً ، حيث كان مائة جرام من النحاس تعادل جراماً واحداً من الفضة ، وجرامان من الفضة يساويان جراماً واحداً من الذهب .

وعند فحص الوثائق الخاصة بتسديد قيمة السلع في الأسواق نلاحظ قائمة طويلة من مختلف المقتنيات معروضة لتسديد القرائير المستحقة على المشترين . ويندر أن يطالب البائع بتسديد مستحققاته وفقاً لشروط معينة ، ومن أمثلة ذلك بيع الجارية السورية الشابة " چمنى حرى منتت " . ولكن في المتجر الذي احتوى على مختلف السلع والمنتجات كان البائع يقبل عادة ما يعرضه عليه المشتري . ويفضل هذا الأسلوب في المقايضة نعرف اليوم قيمة كل سلعة في العصور القديمة ، وفي أقدم العصور ، كانت المعادن بمختلف أشكالها والأقمشة هما العملة التي شاع استخدامها في المبادلات وفي أضخم المعاملات التجارية التي حفظ لنا الزمن شيئاً عنها . كما استخدم الخشب أيضاً في المبادلات ، وكذلك الجلود والأثاث المنزلي .

ومن الواضح انتشار استخدام معدن النحاس ، وسيكة البرونز في المبادلات التجارية . وقد جاء ظهورها على شكل أواني وأسلحة وآلات وأدوات زينة كالمرايا أو مختلف المعادن الخردة التي اختلطت بعضها ببعض . وفي حين اقتصر استخدام الذهب والفضة على الأواني الثمينة والحلى فقد ظل استخدام الرصاص والتصدير نادراً جداً في المعاملات التجارية وكان وزن المعادن أساساً لقيمتها إلى جانب ساعات العمل اللازمة لصنعها ومستوى الصنعة ، اللهم إلا إذا تم تصنيع المعدن ذاته بناء على طلب المشتري . وعلى أية حال فإن سلامة هذا التدبير تتضح من أن المعدن يمكن صهره وتحويله إلى أداة مختلفة ، وهذا ما أشارت به النصوص . أما الأحجار نصف الكريمة فمن النادر أن كانت تدخل طرفاً في المبادلات التجارية . و نعرف قيمتها بفضل الهبات التي قدمها رمسيس الثالث إلى الآلهة العظمى في مختلف أنحاء البلاد .

وكانت الأقمشة تنسج أحياناً من أجل استخدامها في عمليات الشراء المرتقبة . ففي مقابلها يمكن الحصول على قطعة أرض لزراعتها على سبيل المثال . وتتحدد أسعار الأقمشة حسب طولها وحسب نوعية النسيج ورنقته . وبشكل عام كان سعرها في عصر الرعامسة يتأرجح بين جرام واحد أو ٥ ر ٤٥ جراماً من الفضة . وكانت قطع القماش والملابس والمنسوجات على كل شكل ولون . من الشريط والحزام ، فالنقبة المشككة الصغيرة ، فالشال والطرح السبيكة أو الرقيقة . أما الجلود فكان يصنع منها النعال والجزء العلوى من المقاعد والرق والأكياس أو القرب . وكان سعرها يتأخر ١٨ جراماً من الفضة حسب النوع والحجم . ولكن إنتاج الخشب كان نادراً وقليلاً ، إذ لا ينبت في مصر سوى أشجار صغيرة على غرار شجر السنط أو الأشجار التي تعطى الأخشاب اللينة على غرار النخيل . أما هياكل العنائر الضخمة ومصارع البوابات في المعابد أو صناعات الأثاث الدقيقة وأشغال تطعيم الخشب فكانت تحتاج إلى أنواع

معينة من الخشب كخشب الصنوبر أو الأبنوس . وقد اقتضت الضرورة أن يجلبها المصريون من الخارج . فصارت ألواح الخشب العادية وقطع الأثاث المصنوعة منها منتجات تحظى بتقدير الناس وإعجابهم . وقد أمكننا حصر معلومات كثيرة عن أسعار ألواح الخشب والمنتجات الخشبية والآثاث ، ولكن أى جدول للأسعار يفقد دلالة ومغزاه إذا لم تذكر نوعية الخشب المستخدم فى صناعة هذه المنتجات وأطوالها وأشكالها .

وبعد أن رصدنا كل هذه المقتنيات وأسعدنا الحظ وأمدتنا ببعض المعلومات حول قيمتها النسبية أو المطلقة ، فهل نجد ضالتنا فننتوصل إلى تحديد مستوى معيشة مختلف فئات المجتمع المصرى القديم ؟ إن معلوماتنا الحالية لا تساعدنا على ذلك . وحسبنا أن نخطو الخطوة الأولى فى هذا الدرب ، علنا نصل إلى هدفنا المنشود .

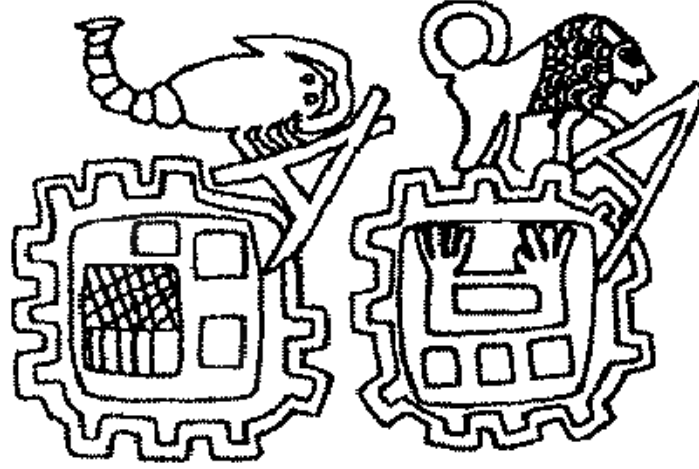
الفصل الرابع

البيئة المصرية

عندما يستعرض المصرى القديم مقومات البيئة التى يعيش فيها ، أو يصور منظراً طبيعياً ، أو يسترجع ذكريات مدينة . فإن له هدفاً واضحاً محدداً ، وهو ببساطة حصر الرموز التى تتكون منها بيئته المهنية أو مقتنياته ، أو تحديد معالم حدث معين أو توضيح الصورة أو الدفاع عن موضوع فكرى أو عقائدى . فهل تصل بنا السذاجة إلى تصديق كل ما يرويه ؟ فنسلم دون تمحيص بالشاهد التى ينقلها إلينا بخلفيتها الطبيعية أو فى إطارها المصطنع . وهل ينطلى علينا بعد ذلك زيف أوصافه ؟ ولكن لا يسعنا إلا أن نعتمد على مختلف أوجه هذا الفن النمطى ، إذ بمضاهاة شواهد بالشواهد التى جمعها علم الآثار ، نتوصل إلى بحث بعض العناصر التى شكلت البيئة التى عاش فيها المصرى القديم من ناحية ، وكيف صورها هو نفسه من الناحية الأخرى .

١ - التجمعات السكانية

مع مطلع تاريخ مصر انتشرت فى أرجاء البلاد مراكز حضارية حقيقية محصنة . ويظهر ذلك بوضوح على صلابات العصر الثينى التى تصور ملئاً نهضت على أساس مخطط معمارى مربع واضح قبل زواياها إلى الإستدارة ويحيطها سور مستن . ودراسة أطلال مواقع أقدم التجمعات الحضرية فى تاريخ وادى النيل ، ومنها على سبيل المثال أبيدوس والفتين ، نتأكد من سلامة الرسومات المبسطة غير المنتظمة التى توفرها لنا التصاویر القديمة وتميط اللثام عن هدايات فن تخطيط المدن . وكانت هذه المدن عواصم للأقاليم ، وترجع شهرة بعضها إلى



شكل ٧ : مدن مصرية . تفصيل عن صلاية المدن . المتحف المصرى بالقاهرة .

عوامل دينية مثل مدينة أبيدوس . ويشكل البعض الآخر نقاطاً استراتيجية لا يمكن الإلتفاف من حولها على غرار الفنتين . وانتشر فى مصر العديد من المدن لها مستوى عادى من الأهمية . يستحيل علينا فى الوقت الراهن تقدير عدد سكانها ولو بصفة تقريبية . ويبرز من بين هذه المدن مدينة منف أولى عواصم مصر الموحدة .

إن الأوصاف التى أوردتها النصوص المعاصرة لتأسس منف وتطورها هزيلة وشحيحة . ويبدو أن اسم " الجدار الأبيض " الذى عرفت به قد جاءها من السور الذى كان يحيط بأحيائها الرئيسية . وقد شيدت المدينة فى منطقة انتشرت فيها الوديان . ومن المستبعد أن تكون المدينة حتى فى عصورها القديمة قد انحصرت فى مساحة صغيرة . كما نعرف أيضاً أن المصريين قد شيدوا سداً لحماية الأحياء السكنية من طغيان فيضان النيل كل سنة . وذاعت شهرة منف ، حيث كانت المقر الرسمى للملك مصر طوال الدولة القديمة . وفى نهاية المطاف عرفت الأجيال اللاحقة العاصمة باسم " من نفر " ، وهو اسم مدينة بيبى الأول الهرمية التى شيدت فى الغرب على ساقية جبانة سقارة الملكية . وجاء الإغريق ليحوروا الاسم إلى

" ممليس " وأهملت المدينة أكثر من مرة وحلت محلها عواصم أخرى وإن لم تنافسها في موقعها المتميز ، فظلت مع ذلك أروى المدن الإدارية في البلاد ، وقد ساعد موقعها عند رأس الدلتا على تطوير مينائها * ، ويرجع الفضل في زيادة أهميتها التجارية والشكائكية في عصر الدولة الحديثة ، إلى ترسانتها البحرية ومخازنها الضخمة .

وظلت منف النموذج الأمثل لأمهات المدن ، ولم تنافسها الشهرة سوى طيبة التي احتلت مركز الصدارة بحلول الأسرة الحادية عشرة ، واختارها ملوك الأسرة الثامنة عشرة مقراً رسمياً لهم لقرها من مسقط رأسهم . إن معارفنا للأحياء السكائية ضئيلة إذا قورنت بما نعرفه عن المناطق المقدسة التي شيدت فوقها المعابد والمساحات التي تضم جبانات المدينة . ورغم ذلك فإن ما تبقى من أطلال هذه المدينة العظيمة يعطينا أكثر من مجرد فكرة بسيطة عن مجدها الفاهر .

كان البر الأيمن (هو البر الشرقي) من النيل يضم القصر الملكي حيث مقر الحكومة ومنازل أعيان البلاد ونبلاتها إلى جانب مقاصير آمون وموت وخونسو ** رمونتو *** . لقد شيد تحوتس الأول خزيته قرب حرم معبد موتو ، واحتفظت مقابر الأعيان المنتشرة في البر الغربي على تصاوير بعض المنازل الحضرية ذات الطابق الواحد يعلوه سطحاً ، ويحيط به النخيل والشجيرات التي تميزت بها الأحياء الراقية . وبينما لا توجد

* وهو معروف بإسم " بررنلر " أي الإبحار الجميل . (المراجع) .

** وهي المعروفة اليوم بإسم معابد الكرنك وأهمهم معبد آمون - رع .

*** رمونتو : كان إلهاً رئيسياً منذ القدم في طيبة . ومنذ الدولة الحديثة عيد كلاله للحرب وحامي الملك .. وكان إلهاً محلياً في أرمت والطود والدامرد . (الترجم) .

مشاهد للأحياء المتواضعة فإن هذه المقابر تزخر بالمشاهد التى تصور حشاش النهر بفتنته وسحره الأخاذ . وقد غصت بالتجار والحمالين الذين يتجولون وسط الهوائيت الصغيرة التى تنهض على مقربة من السفن الراسية . ولعل أبرز مثال لذلك مرسى معبد آمون عندما تنتقل إليه منتجات أملاك الإله المنتشرة فى طول البلاد وعرضها .

وفى الير الغربى مازالت أطلال المعابد الجنائزية باقية على امتداد حدود الأرض الزراعية وفوق التلال الصحراوية المعززة بجدران الملوك والأفراد . وفى الأطراف الجنوبية تقع أطلال قصر أمنحوتب الثالث الضخم والميناء الذى يخدمه ، على مقربة من بقايا موقع عسكري يقع على حافة الصحراء . ومن بردية من عصر الرعامسة ، نعرفه أن مدينة طيبة الغربية الكبرى كانت تمتد على مسافة عدة كيلو مترات بمحاذاة النيل وتضم مساكن الكهنة والحدادين والأطباء وصغار الموظفين وبعض المسئولين المحليين إلى جانب المراكز الدينية وحوائت الأغراض الجنائزية . وقد صورت بعض هذه المساكن على جدران عدد من المقابر محاطة بالحدائق الصغيرة . أما قرية عمال الجبانة فتقع فى بطن أحد الوديان الصحراوية بعيداً عن وادى النيل ، وتعتبر أسوارها المتتالية وجدران أحدث مساكنها من أفضل ما أبقى لنا الزمن ، وخير شاهد على العمارة المدنية فى الدولة الحديثة . وهذه الأسوار المتتالية لا تشكل تحصينات لحمايتها بل ترسم حدود التجمع السكنى فقط . وتستند المساكن المزدوجة إلى هذه الأسوار باستطاعتها وضيقها وكأنها تتزاحم متكأة بعضها على بعض ، وتخترقها حارات من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب . وإذا عاشت هذه القرية طويلاً على مر القرون فإن شكلها الخارجى يبدو عشوائياً وغير منتظم ، ولا يوجد فيها أرض فضاء أو مسطحات خضراء . وقد تتجمع صوامع الغلال خارج الأسوار ، ولها يحفظ أهل القرية مخزون الحبوب اللازم لغذائهم . وهناك أيضاً شيدت

الهياكل والقاعات المخصصة للاجتماعيات .

ولم تصلنا أوصاف أدبية عن مدينة طيبة ، شأنها في ذلك شأن منف . ومع ذلك فقد أشار الكتبة عند حديثهم عن مقر ملوك الرعامسة في شرق الدلتا إلى ما اتصف به هذان النموذجان من أوصاف . فيقولون : " أمر صاحب الجلالة .. له الحياة والرفاهية والصحة .. بأن يشيد له مقر جديد أطلق عليه " العظيم الانتصارات " . ويقع بين بلدان المشرق ومصر حيث يتوفر الطعام وموارد الغذاء . ويشبه تخطيط مدينة طيبة وهو خالد على مر الدهور على غرار مدينة منف . والشمس تشرق وتغرب في أفقه . ويترك الناس جميعاً بيوتهم ليقيموا على مقربة منه . الحى الغربى هو حى آمون . والحى الجنوى للإله ست . والحى الشرقى للإله عشتارت * أما الإلهة واجت ** فتسكن الحى الغربى . وقصر الملك أشبه ما يكون بأفق السماء ... "

ينتمى هذا النص إلى أدب المناسبات ، وهو غنى بالاستعارات البلاغية . ولكنه هزيل وفقير من ناحية أوصافه . وقد وصلنا نص آخر يدور حول نفس الموضوع وقد توخى عرض معلومات دقيقة ولكن فيما يتعلق بموارد المدينة التى لا تنبض . ولا يشير النص إلى الحدائق والبحيرات التى تزينها ولا إلى الريف والمبناى إلا عرضاً .

* آلهة أسبورية ، قدمت إلى مصر خلال الأسرة ١٨ وأصبحت زوجة الإله ست .
(المترجم)

** واجت : إلهة من الدلتا اتخذت شكل الكوراء . عادت في مدينة بوتو (تل الترامين حالياً - شمال الدلتا) . (المترجم) .

ورغم ما يؤكد الكاتبان في هذين النصين فإن الفجوة شاسعة بين ما يقولونه وبين واقع المجموعات السكانية في العاصمتين الشهيرتين اللتين تعتبران نموذجاً واستثناءً . وحيث تعذر علينا عمل حصر بفئات التجمعات السكانية في مصر ، فسندكتفى بالحديث عن التقريظ الذي خصه الكاتبان لوصف مدينة " بر رعمسو " * فتؤكد أن هذه التجمعات السكانية قد احتفظت بروابط وثيقة في جميع العصور مع المناطق الريفية . إذ لا يمكن للمدن بما في ذلك العواصم ، كما لا يمكن للقرى أن تعيش في عزلة تامة عن الحقول وبساتين الفواكه التي تلتف من حولها والحدائق المنتشرة في قلبها . ولذلك كان من الصعوبة بمكان أن نتعرف بوضوح على المدن الريفية المحض وسط هذه التجمعات السكانية

* هي عاصمة رئيسى الثانى المعروفة باسم " بى رئيسى " أو " دار رئيسى " التى شيدت على أطلال " أواريس " عاصمة الهكسوس . وهى تحتل الآن المساحة التى تضم إلى جانب تل الضبعة بشرق الدلتا عزبة رشدى الصغيرة ، والختاعة وقتشير ، والأراضى الواقعة بين هذه القرى جميعاً (المراجع) .

٣ - الريف

لا تهتم معظم التصور بالريف سوى كمصدر للغذاء اللازم للحضر
 " فالبرك تجمع بالأسماك وبحيراتها تغطيها أسراب الطير ومروجها خضراء
 بما فيها من نباتات إلخ .. " كذلك الصور التي تغطي جدران المتاحف فلا
 وظيفة لها سوى إظهار هذه المقولة . فتكرار تصوير الحقول وأشجار
 الدراكة والكروم تأكيد على استكمال قورها وانتظار ثمارها . وتصوير
 البرك تعبير عن وصف القنص والأسماك والمراعى . ولكن يحدث في
 بعض الأحيان أن يصبح المقصود من تصوير منظر طبيعي أمر آخر غير
 مجرد التفكير بالإمكانات الاقتصادية التي ينطوي عليها . فعالم النبات
 والأحياء المائية من المواضيع التي اجتذبت الفنانين والرسمين وسحرت
 ألباهم . إلا أنها استخدمت أيضاً كعناصر زخرفية في قصور ملقطة *
 وتل العمارة . وكإطار لوصف أحداث الأساطير المصرية . وتسجل جدران
 الهياكل أحياناً مناظر مراهض الحيوانات المقدسة . ومثال ذلك مراهض
 غزلان الآلهة " عنقت " في جزيرة سهيل ** . وخلفية
 العديد من الرسومات التوضيحية لقصور كتاب الموتى تمثل الطبيعة . كما
 أن صانع النماذج الحجرية له أحياناً نزعات موسوعية على غرار مناظر
 " قائمة لقول السنة " في معبد الشمس الذي أقامه " نى وسر رع " في
 أبو غراب *** . وكذلك " حديقة النباتات " التي أقامها تحوتس الثالث

* تقع ملقطة في الطرف الجنوبي من البر الغربي لمدينة الأقصر على حافة الأرض
 المتزعة (المترجم) .

** تقع جزيرة سهيل على بعد ٤ كيلو مترات جنوب أسوان وكسنت " عنقت " (انركيس باليونانية) الهنبا الرقسية . (المترجم)

*** نى وسر رع - إني هو خامس ملوك الأسرة الخامسة . أما أبو غراب تقع بجبانة
 صف جنوب أهرامات الجيزة (المترجم) .



شكل ٨ : عرض الغزلان المقدسة للإلهة " عنت " مشهد من مقبرة " غمر حوتب " بدير المدينة .

فى الكرنك . وحتى مشاهد الزراعة وتربية المواشى التقليدية ومشاهد الصيد البرى والصيد البحرى هى أيضاً تكشف فى أغلب الأحيان عن شطحات من جانب الفنان . فالحقل الذى يبدو لأول وهلة خال من العيوب يكتشف فيه المدقق بعض الأعشاب الرديئة . ونرى أسراباً من العصافير الملونة فوق شجرة سنط * أو تمساحاً قابلاً فى قاع مجرى مائى بينما قطع يعبر عند مخاضة * . أو عجلاً يحنو على أمه قبلامسها بلسانه .

ومجمل هذه التفاصيل الصغيرة التى نكتشفها كل على حدة ، تسهم فى بعث الحياة فى مشاهد ريفية فرضت عليها مواضيع نمطية .

ويصبح التلميح التصويرى أحياناً أكثر عمومية وأقل عقلانية فى سبيل إظهار منظر طبيعى أكثر شمولاً . ولكن مع مزيد من الدقة فى تحديد أوصاف وشكل المكان تجسم الأرضية وتتخذ أبعاداً مادية وهذا بتحديدھا ، كما جرى العرف بخط أسمر . ويتخذ مساراً متعرجاً غير الحقول والأشجار ليوحي بتجسيم الصورة ، وكذلك تمنحى مجارى المياه وتتمرج وتتقاطع فتقسم أرضية المشهد إلى عدد من الصفوف غير المنتظمة فتعطينا انطباعاً بأن للمشاهد أحجاماً وأبعاداً مختلفة . إن هذه المحاولات التى نمت على استحياء لتجسيم الناظر الطبيعية قد تبقى غير قادرة على استشارة مخيلتنا بدون الإستعانة بما تقدمه دراسة البيئة الطبيعية لقصر المعاصرة . وقد سارت هذه الدراسة فى خط مواز مع دراسة باطن الأرض من خلال عمليات حفر التربة باستخدام أساليب البحث الجيولوجى إلى جانب دراسة تغيرات مجرى النهر . إن الوادى عريض أحياناً فى جنوب مصر . ولكنه يضيق فى أماكن أخرى ويحفه من الجانبين هضبتى الصحراء الشرقية والغربية . وإذا انتقلنا من إقليم إلى

* وهو موضع شمل الماء يخوضه الناس مشاة أو ركباناً . (المترجم) .

آخر ننتقل من بيئة طبيعية سهلة إلى أخرى جبلية . ويستمد الريف في مصر مصدر حيويته الحقيقية من وجود نهر النيل والقنوات التي تتفرع منه . وكان الوادي ينحصر من قبل في المناطق التي تغمرها مياه الفيضان مع حلول الربيع . وكانت الأراضي المنخفضة مهددة سنوياً بارتفاع منسوب المياه فيها . ولذا شيدت المدن والقرى فوق الروابي ، سواء كانت مدرجات رسوبية أو تلال أو أراضي مرتفعة . والواقع إننا لا نعرف سوى القليل عن المساكن الريفية رغم ما وصلنا عنها من أوصاف رائعة :

" لقد شيد " رعبا " داراً جميلة على شاطئ النهر . قبالة مدينة أطفيج (...) (١) وتحيطها الأشجار من كل جانب .. وتجرى قناة أمامها ، ويشمل الهدوء المكان . ولا يقلق مضاجع أهل البيت سوى هدير الأمواج . ومنظر الدار يسعد النفس . وتغمرنا البهجة بمجرد أن نعبث باب المنزل . وإذا دلفنا إلى قاعات الاستقبال وصلنا إلى ذروة المتعة فكثافت الأهراب والشبابيك مصنوعة من الحجر الجيري الجيد المجلوب من طره مدون عليها ومنقوشة . وقد تم تجديده مصاريع الأهراب . وطعمت الجدران باللاز ورد . وامتلأت الصوامع عن آخرها بأجسود أصناف الخبواب والغلال . وتلا حظائر الطيور بالأوز الرمادي اللون . وتغص الزرايب بالآبقار . بينما أعدت بركة لتربية وتكاثر البط والأوز . وفي الإسطبل تقف الجياد . بينما ترسو القوارب والصنادل والسفن المعدة لنقل الماشية عند الشاطئ .. "

صحيح أن العرض السابق بدأ بالحديث الشيق والشعور بالبشر والسعادة عندما يتم الإنسان بالإقامة في مثل هذه الضيعة . ولكنه سرعان ما يتطرق إلى استعراض ممتلكات رب البيت دون أن يحيد عن الموضوع الأصلي .

وتختلف البيئة الطبيعية في الدلتا عن مثيلتها في الوادي . ففي الدلتا تكثر المجارى المائية والمستنقعات والبحيرات . وتضم المملكة النباتية البردى والبوص ومختلف النباتات المائية على وجه الخصوص إلى جانب شجر الكروم والفواكه والبساتين . كما تمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط الملاحات التي لم يتوقف استغلالها حتى الوقت الحاضر . وتنتشر التجمعات السكانية في التجرع . وقد روى عند تشييدها تضاريس الأرض وأن تكون بعيدة عن مياه الفيضان . فقامت فوق الرأسى الطبيعية التي تعرف بالجزر أو شطآن الترع والقنوات بعد تعليبها بالتربة المتخلفة عن عمليات حفر وتطهير المجارى المائية . ولأسباب تاريخية ودينية وتجارية تأسست مدن رئيسية على فروع النيل الكبرى . وبمرور الزمن تكونت وادى صناعية لأقيمت المساكن الحديثة على أطلال المساكن القديمة . وهو ما نطلق عليه بالعربية " كسوم " أو " تل " .

ففي الدلتا والوادي على حد سواء تعتبر شبكات القنوات والترع عنصراً أساسياً في تكوين البيئة الطبيعية كما تؤثر في تشكيلها . وهذه الشبكة المائية هي مصدر الحياة والمأوى الدائم للأسماك وقنص الأحياء المائية . وهي تمثل أول شبكة مواصلات تربط أطراف البلاد إلى جانب الدروب القديمة . وقد ارتبطت عملية تصوير شبكة المجارى المائية بوظيفتها في النقل والمواصلات . ومن هنا تنبع أهمية الأسطول النهري في مصر القديمة . وقد ترتب على ذلك ، الاهتمام بإعداد أحواض السفن في الموانئ والمراسي لاستقبال جميع السفن على اختلاف غواطسها . ومن هنا ظهرت ضرورة بناء الترسات البحرية والمخازن والورش والأسواق الصاخبة . ولم يميز عن التصوير بين ضفاف النهر وشطآن الترع أو القنوات التي أصبحت مناطق جذب يلتقى فيها سكان القرى وملاحى السفن القادمين من داخل البلاد أو خارجها .

وقد يحدث أحياناً أن ينسى المصريون الظروف المادية ومتغيراتها
تاركين العنان لخيالهم . فتفتقت قريحة أدباء الدولة الحديثة عن أعذب
" أغاني الحب " وأكثرها تعبيراً عن الموقف النفسى تجاه الطبيعة
المحيطة . وتدور رقائع هذه الأغمال الأدبية فى الريف . وهى مستوحاة
من الأشجار والحداثق المختلطة بالشباب لتعطى لغة شعرية رقيقة منمقة .
تقول :

" (...) أنا ملك يديك كما الأرض

التي خططتها زهوراً

ونباتاتاً بمبيرها الرقراق .

ما أجمل الترع والقنوات شرايين الأرض

التي حفرتها يديك

لما اجتذبت نسيم الشمال المنعش !

ياله من متنزه رائع (..) "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم

P. Posener - Kri`eger , d, apr`ess. Schott les

chants d'amour de l' Egypte Ancienne , Paris, 1956 ,

P. 77)

٣ - الصحارى

شغلت الزراعة مساحة ضيقة من أراضي هذا البلد ، فطقت المساحات الشاسعة من الصحارى القاحلة الجرداء على حياة المصرى اليومية . والصحارى أنواع : أولها الصحارى المتاخمة للراى التى تبدأ حيث تنتهى الأراضى المروية بمياه الفيضان . إنها صحارى الجبال حيث النباتات الشوكية والعشبية . ثم تنتقل بعد ذلك إلى الواحات وهى النقاط المتبقية فى الصحراء الغربية من رادى نهري عتيق مواز لنهر النيل . ثم تصل إلى الجبال الغنية بثرواتها المعدنية المتنوعة وتقع على مسافات مختلفة من المناطق المأهولة بالسكان ، وينتهى بنا الطاف إلى المناطق المتاخمة للحدود أو المطلة على البحر الأحمر وتحميها الحصون أو توجد بها الموانئ أو حيثما يعيش البدو الرحل وتجذبهم سهول مصر تارة أو يعادون سلطاتها تارة أخرى .

ولم تهتم المقابر سوى بتصوير النوع الأول من هذه الأراضى الجرداء . سواء فى المشاهد التى تمثل المقبرة ذاتها أو ما يرتبط بها من احتفالات أو فى المناظر الرمزية التى تمثل البقرة حنود وهى خارجة من جبل طيبة ، أو فى مشاهد القنص وتربية الأغنام . وهذه المناطق تحتل منزلة وسط بين الأرض الزراعية والصحراء الحقيقية . فهى أقرب إلى السفانا أو بيئة الإقليم * الساحلى * منها إلى المناطق الصخرية الجرداء ، فى الجهات الأكثر بعداً .

أما واحات الصحراء الغربية فكانت منذ عصور ما قبل التاريخ أهلة بالسكان ولكنها استعمرت منذ الدولة القديمة ، وتمتد الواحات إلى الجنوب فى نطاق منخفض مستعرض فى اتجاه دارفور . واشتهرت تلك الواحات

* نسبة إلى الساحل ، وهى مناطق قريبة من السواحل الشمالية فى تونس والجزائر .

(المترجم)

التي كانت تدار بواسطة حكام ، ببعض أراضيها الزراعية . وتعتبر الكروم من أهم موارد هذه المراكز الإدارية البعيدة وقد اكتشفت مؤخراً في بلاط ، عاصمة هذه المراكز الإدارية بالواحة الداخلة . وهي ترجع إلى أواخر عصر الدولة القديمة وتغطي مساحة ثلاثة هكتارات * . ويحيط بها سوراً مربع الشكل ، وتمتد الضواحي خارج هذا السور وهي محاطة أيضاً بأسوار وإكتشاف الفواخير يتأكد لنا وجود حرفة محلية متطورة نوعاً ما . كما تدخل قائمة مناظر الواحات لطحان الحمير وملح النطرون المنتج في أكثر الواحات تطرفاً نحو الشمال ** وهو من المنتجات اللازمة للمارسات الجنائزية المصرية .

ولقد تعددت الفروات المعدنية في الهضبة الجبلية التي تحيط برادى النيل ، وتنوعت طبيعتها الجيولوجية . ومنذ وقت مبكر كانت هذه الهضبة مسرحاً لنشاط لأعمال المحاجر والمناجم التي استقبلت بصفة دورية البعثات التي تتفاوت أهميتها حسب الظروف والحاجة . وفي بعض العصور وطبقاً للسياسة التي يرسنها ملوك مصر تزايد استغلال بعضها دون البعض الآخر . ولقد احتفظت هذه الأماكن ببقايا استخراج الحجر والمعادن وغيرها من الخامات . وبقيت أطلال مساكن العمال والهيكل التي شيدها هؤلاء الرجال سواء كانوا جنوداً أم عمال غير مهرة أو حرفيين . إذ كان عليهم يقتضى أن يعيشوا بعيداً عن عائلاتهم وآلهم لفترات قد تطول أو تقصر .

* أو ما يعادل سبعة أكتة (المترجم) .

وه كلمة (واحة) مصرية قديمة وكانوا يطلقونها كما جاء في نصوص معبد أدفو على سبع واحات هي : الخارجة والداخلة والفرافرة وواحة بين الفرافرة والبحيرة ثم البحيرة وسيرة برادى النطرون . أما الآن فالواحات المعروفة في الصحراء الغربية خمسة فقط . (المترجم) .

أما التصوير الوحيد لهذه المناطق الجرداء الذى سلم من عوادم الزمان
فيمثل ما يشبه " خريطة للبحث عن كنز " لقطاع من وادى الحمامات فى
الصحراء الشرقية . والخريطة مرسومة على خطوط مبسطة على لفافة من
ورق البردى . وقد رسمت الجبال مستوية على جانبي الدروب التى تشق
المنطقة وتوضح مواقع مناجم الذهب والصخور التى تحتوى معدن الفضة
وأكوخ عمال المناجم ومواقع بئر ومعبد الإله آمون ونصب حجرى للملك
سبتى الأول الذى شيد سلسلة من مراكز توفير الماء على امتداد أحد
الدروب صوب هذا الموقع ، لتيسير رحلات الفرق المرسلة للعمل فى
مناجم الذهب الأخرى . وتتولى فرق خاصة من الشرطة مسئولية حراسة
هذه المراكز الإدارية .

وتنتشر قبائل البدو ذات الأصول المتباينة ، عند سواحل البحر الأحمر
الجرعاء وفى شبه جزيرة سيناء وعند أقاليم الحدود الليبية فى غرب الدلتا
وفى التربة السطلى * . وقد كانت تعيش فى أمن وسلام معتمدة على
الرعى وتربية المواشى . وقد كانت هذه القبائل تهدد المصالح المصرية فى
القطاعات الاستراتيجية بين الحين والآخر ، مدفوعة باحتياجاتها الشخصية
أو مضطربة من العناصر الخارجية . فالحملة التى أرسلها يهوى الثانى
إلى سواحل البحر الأحمر قد أهدت عن بكرة أبيها على أيدي البدو ،
عندما كان أفرادها يهيمون بتجميع أجزاء السفن التى جاءت من الوادى
عبر دروب الصحراء والتى كانت ستبحر بهم تجاه بلاد بونت . ولصد هذه
التهجمات والمهاجرين الأكثر خطورة شُيّدت التحصينات فى مختلف المناطق
الحدودية مع دولة الدولة الوسطى . وكانت إلى جانب مهمتها فى الحفاظ
على أمن البلاد كانت تقوم أيضاً بدور المراكز التجارية فى المبادلات

* أى التربة الشمالية الغربية من أسوان (المراجع)

الاقتصادية المنتظمة بين مصر وجيرانها . وفى عهد سيسى الأول شن حملة ضد البدو الشائرين فى شمال سيناء . وبهذه المناسبة تم تصوير الحصون التى شيدها الملك فى هذه المناطق فى ترتيبها الجغرافى على الجدار الشمالى من بهو الأعمدة بمعبد الكرنك . فتبدأ بمركز الحسرد فسى " ثارو " * ، المطل على قناة السويس حالياً ، وحتى تخوم فلسطين . وقد وصلت فى دقة متناهية عمليات البناء ومكان كل بئر وكل شجرة . كما وصلتنا يوميات أحد ضباط مركز الحراسة فى هذه التحصينات من عهد مرنبتاح ** . وهى تشهد على أهمية النشاط فى مجمل هذا القطاع . خلاصة القول ، أن صحارى مصر لم تكن أرضاً قفرأ ، كما قد يتصورها البعض .

* مدينة الفترة حالياً . (المترجم)

** هو ابن ومسيس الثانى وحفيد سيسى الأول من الأسرة التاسعة عشرة (المراجع) .

٤ - الأجانب

ارتبط المصري مع جيرانه بعلاقات مبهمة شابتها المفارقات . فبیشما اجتذبت بلدان اعتبرها بلداناً أجنبية إلا أنه في نفس الوقت كان يخشى المفامرة التي كانت تعنى في العصور القديمة شدّ الرجال إلى البلدان البعيدة والسفر إليها . أما وجهة نظر الإنسان العادي فهي تنطلق بكل بساطة من إمكانات مصر العسكرية ، فتري أن الأجانب يشكلون تهديداً خطيراً على مصر ولكنهم أيضاً مصدر عظيم لزيادة ثروات البلاد . وفي أواخر الدولة القديمة ، قبل الكثير من حكام الأقاليم في الفنتين أن يسيروا على رأس حملات إلى بلاد النوبة بعد أن تغلبوا على مشاعر التردد والقلق التي أثارتها في نفوسهم شعوب تلك البلاد . وإن لقي بعضهم حتفهم هناك . وكلفهم بعض الملوك باستشكاف دروب جديدة . فجعلوا من رحلاتهم منتجات متنوعة لم تعرفها مصر من قبل . واضطروا أحياناً إلى خوض المعارك . كما كانوا أحياناً طرفاً في المواجهات بين شعوب وأجناس مختلفة . وعقدوا الاتفاقيات مع بعضها . ونلاحظ أن جميع التراجم التي روت لنا قصة هذه المآثر تغفل أي وصف للمناطق التي مرت بها هذه الحملات أو عادات شعوبها وعقليتهم . وسارت علاقات مصر بجيرانها الآخرين على هذا المثال .

وعلى نحت من الأسرة الأولى بصخرة بواي مقارة . يظهر فرعون وهو يفتك بعدوه . وظلت هذه الصورة رمزاً بقي مصر من أعدائها ويخلد هيمنتها على جيرانها . ووصلنا ابتداء من الأسرة الخامسة أسلوباً سحرياً آخر يحمل معنى مشابهاً : فقد ظهرت تمائيل صغيرة هي تعاويذ لدفع الشر ، صنعت من الخشب أو الطين التي أو المحروق أو من الشمع أو الألبستر أو من الحجر الجيري . وقد دونت عليها بالكتابة الهيروغليفية قوائم أسماء الأمراء والأميرات التي تشير إلى بلدانهم . وقد كتبت عليه

عبارات مشينة بهدف الإضرار بهم من خلال المادة التي صنعت منها التعميدة ، كما استهدفت هذه العبارات دراً ما يمكن أن يواجهه المرء من أخطار . وقد تحمل الأواني محل هذه التماثيل الصغيرة كما توجد صيغ شعرية غيرها . فآثناء الشعائر التي تقام احتفالاً بتأسيس العماير أو المجموعات المعمارية يتم تحطيم عدد من هذه التماثيل ويلقى بها في حفرة أعدت خصيصاً لهذا الغرض . فتحمى المبنى من قوى الشر المعتملة أيها كانت . وقد اختفت معظم التماثيل التي صنعت من الشمع بسبب الحرائق . وقد استمر هذا التقليد حتى العصر التأخر . وإلى جانب ذلك فقد نقشت قوائم بأسماء المدن أو البلدان الأجنبية التي أمكن لمصر إخضاعها بالفعل أو على افتراض ذلك ، داخل أطر بيضاوية الشكل ربطت بها " بروفيل " لصورة أحد الأسرى . وهذه القوائم موجودة في الأجزاء السفلى من الصروح والأساطين لاستعراض صورة المهزومين أثناء تقديمهم قرباناً للآلهة ، بعد مجردهم من كل نزعة عدوانية . كما انتشرت عادات شبيهة بالتقاليد السابقة تثبيتاً لسلطة فرعون على أرجاء المعمورة ، على مرّ العصور . أن أكثر المفاهيم نزعة إلى السلام تصور دافعى الجزية من الأقطار التابعة لمصر ، أو تكتفى بذكر أسمائهم وهم يقدمون للملك أو وزيره إسهاماتهم السنوية من رجال وقطعان وحياد ومركبات ومنتجات كمالية .

وكل هذه الاحتياجات الوقائية طقسية كانت أم سياسية ، لا ينهض أن تدفعنا إلى إغفال حقيقة إندماج الجماعات الأجنبية في المجتمع المصرى في الممارسة اليومية ، قبل الألف الأول قبل الميلاد وهذا ما تؤكد العديد من الشواهد .

وإذا أخذنا بصدق موضوع أدهى ذائع الإنتشار ، فإن المصرى الذى يسافر إلى خارج البلاد أو الذى يعمل في إحدى المحميات البعيدة أو

الذى يختار المنفى لأسباب سياسية فإنه فى جميع الحالات يحرق شوقاً للعودة إلى مسقط رأسه ويتطلع إلى أرض أجداده ليقتضى فيها بقية عمره ، بغض النظر عما سيلقاه فى بلاده .

" إني أقيم فى " كئكتاتو " . وليس لدى كافة الضروريات . ولا يوجد عمال لصنع الطوب . كما لا يوجد قش فى الضواحي . لقد ضاع كل ما جلبته لاستخدامى الشخصى . رغم أننى لا أملك حماراً يمكن سرقة . وأقضى أيامى فى مراقبة العصافير وصيد السمك . إني أتطلع سنوياً إلى الطريق الصاعد * إلى فلسطين وأرقد تحت شجرة لا تحمل ثماراً (1) صالحة للأكل . فثمارها قد اختفت رغم أنها لم تنضج . ومع شروق الشمس يملأ البعوض المكان . وعند الظهيرة التاموس . وذبابه الحيل تلدغ وتقتص (الدم) من العروق (...) "

إن ما تذكره النصوص عن رحلة مستكشف أعزل أو تحركات جيش لا يتضمن عن خطوط سيرهما شيئاً . ويقتصر الأمر على ذكر أسماء المناطق التى وصلوا إليها أو تلك التى يعبرونها أو كانوا قد عبروها . إن وصف البلدان الأجنبية أمر تادر وشاذ ويقتصر الأمر على حصر الموارد المحلية . على غرار ما يحدث فى المعتاد عند الحديث عن مصر :

" كانت أرض طيبة أسمها " يا " . إنتاجها تين وعنب . ونبيلها أكثر من مائها . وعسلها وزيت الزيتون فيها كثير متوفر . وأشجارها تطرح الفراكه بأنواعها . وبها الشعير والحنطة والماشية بكافة أنواعها بلا حدود "

(نقلاً عن

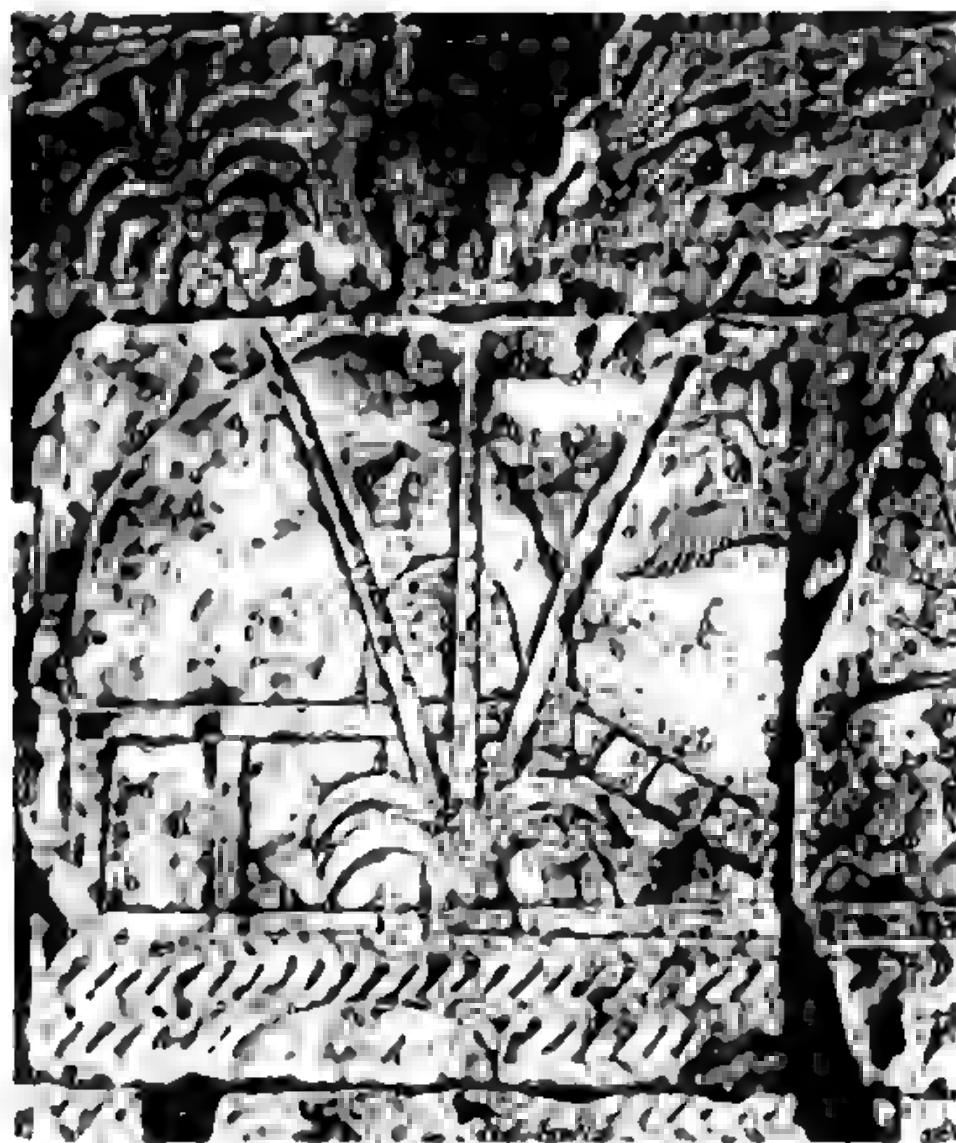
(G. Lefebvre op. Cit . P. 11

* النزول معناه الذهاب إلى الشمال . والصعود معناه الذهاب نحو الجنوب . (المترجم) .

أما مشاهد المناظر الطبيعية من خلال الحملات السلمية أو العسكرية فقد اختصت بها جدران المعابد واقتصرت عليها تقريباً . إذ تقدم جميع مساوردها قرباناً للآلهة . ولم يبق من مشاهد هيلاد النوبة سوى الصورة التي تقدمها نقوش المعبد الجنائزى للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى . وتحتفظ النقوش بالثال الوحيد المعروف لقرية أفريقية ترجع إلى العصور السابقة على العصر المتأخر .

وتنهض القرية قرب شاطئ مجرى مائى تسبح فيه السلاحف المائية والأسماك . والأكواخ مرفوعة فوق أوتاد . ويمكن الوصول إليها بواسطة سلم . ولعلاج غياب استخدام قواعد المتطور الخلفت أبعاد المساكن ودعى عدم انتظام ترتيب شجر البخور وشجر الأباتوس . ونشاهد حيوانات متوحشة أو أليفة أو طائراً يتنقل من شجرة إلى أخرى . وبقرة ترقد بجوار أحد الحيوانات . وكلب يجرس الأكواخ .

إن المشاهد التصويرية الوحيدة التى وصلتنا ويمكن تشبيهها بهذا المنظر الفريد ليست فى نفس المستوى من حيث النظارة والحيوية . إنها مشاهد الإستيلاء على الحصون والقلاع الشبيهة بمنابر الجداريات الآشورية . ولكن تدور أحداث اقتحام هذه المواقع المحصنة وهدمها فى جو ريفى لمجرد تصوير الجنود المنتصرين وهم يقطعون الأخشاب ، ويقومون بأعمال الحصاد . فالعمليات العسكرية كانت مجرد مبرر استغنى الفنان لتصوير غابات لبنان وتلال سوريا التى تكسوها الأشجار .



شكل ١٩: الحجارة من حوض حاسنوت - بالقرب من البحر

الفصل الخامس

الحياة الخاصة

إذا كانت الأعمال التى يكلف بها المصرى بصفته من كبار الموظفين أو مجرد عامل غير ماهر كثيراً ما تضطره إلى مقادرة منزله ليعيش بعيداً ، إلا أنه ظل مرتبطاً ببلده وعديته . فالمصرى لا يفصل إلا فى القليل النادر بين الوسط العائلى والوسط الاجتماعى أو الوسط المهنى . إن زملاءه فى العمل هم غالباً أبوه أو ابنؤه أو أسهاره ، إلى جانب جيرانه وأصدقائه . ويقيم عادة فى منزل تابع لوظيفته فى الأحياء التى يقيم فيها أقرانه . أما إذا كان من المستثمرين الزراعيين فإنه يشهد بنفسه دأره التى تروج بحركة العاملين ومن الذين يشاركونه الحياة اليومية فأصبحوا جزءاً من الأسرة أو كادوا . فقد وصلنا بأشكال مختلفة معلومات دقيقة عن الحياة الخاصة لأفراد ينتمون إلى شتى الفئات الاجتماعية . ومع ذلك فما وصلنا عن إحدى الجماعات العمالية يعد أفضل تصور تكاملت عناصره من جميع الجوانب . ووقفت الصدفة وحدها وراء هذا الحدث . ستخذ من هذه الجماعة مرجعاً لنا أو موضوعاً لعقد المقارنات بل والمضاماة ، حسيما تقتضيه المعطيات التى نحصل عليها من خارج إطار هذه الجماعة .

١ - العائلة

تشمل عائلة المصري بمعناها الواسع الآباء والأجداد ، والأبناء والأحفاد ، والأنتباء . وتشكل الإطار الأمن الحصين الذى سجلته فى إباء وشمم على العماثر الجنائزية والدينية . ومع ذلك فإننا لا نعرف الإصطلاح الخاص للدلالة عليها خلاف " أهل الدار " . مهما بلغت قوة الروابط التى تجمع الإبن بوالده فمن واجب الأب أن يستحث كل من أبنائه على تأسيس بيته الخاص أى أن يشيد منزلاً أو يرمم المنزل الذى قد يتسلمه عند الإلتحاق بالعمل . ثم يتخذ لنفسه زوجة . وهكذا يجنح المجتمع إلى قدر من تشتت العائلات لتكوين النسوة الأولى لجماعات جديدة محدودة العدد . وهى تتكون من الزوجات وأبنائهم ومن يتكفلهم من الأقارب كالأم الأرملة أو الإخوة والأخوات اليتامى الذين لم يلقوا سن الزواج بعد ، إلخ ... هذه الجماعات الحديثة التكوين ترحب إذن بالأفراد الذين انعزلوا عن ذويهم أو تباعدوا عنهم ، لا سيما النساء الفرادى أو المطلقات . إن رعاية الوالدين واجب أخلاقى مفروض على الأبناء . يشجعهم على ذلك ، من بين أمور عديدة ، الميراث المرتقب . وهو سلوك شبيه بما يحدث فى الوقت الراهن . فقد وصلتنا فى واقع الأمر وصية بحرمان عدد من الورثة الشرعيين من حقهم فى الميراث . وقد صارت المقبرة فى بعض العصور المكان الذى يجتمع فيه أفراد الأسرة الواحدة ، للمرة الأخيرة وإلى الأبد . هكذا اكتشف المتقيون فى مقبرة من عصور الرعامسة على نيف وعشرين مرمباً مكدسة فى حجرة دلتن واحدة . ولكن ندرة مواضع الدفن التى نجت من اعتداء إلى أن اهتدى إليها علماء الآثار وتم فحصها لا تسمح بالوصول إلى استنتاجات محددة . ومن جانب آخر تشير المعلومات المستمدة من عصور أخرى إلى تخصيص المقبرة للزوجين فقط . فلا يشاركهما فيها أحد ، بما فى ذلك الأبناء الذين توفوا فى سن مبكرة فخصصت لهم جبانات مستقلة .

يبدو أن الزواج في مصر الفرعونية كان لا يتم إقراره بواسطة مراسم دينية أو وثيقة قانونية . إذ لم يصلنا أى عقد زواج رسمى قبل حلول العصر المتأخر . خلافاً لحالات الطلاق التى تستوجب توضيح المواقف بشأن توزيع الثروة والممتلكات بين الزوجين . فيحتفظ كل منهما بما كان يمتلكه قبل الزواج . ويتم تقسيم كل ما استجد من ثروة وممتلكات بنسبة الثلثين للرجل والثلث للمرأة . ولا يعتبر الزواج بالضرورة مناسبة لإقامة حفل عاتلى . ولكن كان يحدث أن يتقدم طالب الزواج بما يشبه المهر للحصول على مرافقة والد الفتاة ، تماماً كما يحدث فى مصر المعاصرة .

وكانت إقامة الزوجين فى بيت واحد هى الترجمة الواقعية للمموسة لإتمام القران . فإذا كانت الأسرة المالكة وحدها هى التى تأخذ بتعدد الزوجات ومبدأ زواج الأقارب بدافع من الحرص على شرعية انتقال السلطة الفرعونية . فما عدا ذلك . فإنه لم يستدل على وجود مثل هذا السلوك . سواء بين الطبقات الميسورة أو الأوساط الفقيرة . فالزنا والاعتصاب من الأمور المفروضة والتى يعاقب عليها . وفى المقابل فقد شاعت حالات الطلاق وتعددت لا سيما بين الفقراء . وكانت القاعدة تقتضى الزواج ثانية فى حالة الثرمل أو الطلاق . والعزوبة اعتبرت سلوكاً غير اجتماعى . ولم يذكر اللواط إلا فى سياق الأساطير . الأمر الذى لا يساعدنا فى الحكم على موقف المجتمع المصرى من هذا الأمر . وإذا كان المجتمع لا ينادى بالاستمتاع المبالغ فيه فيما يتعلق بالأمور الجنسية إلا أنه كان يشجب أى استيحاء لا مبرر له . إن الفزل الرقيق يطفر على السطح فى " أشانسى الحب " . لقد سبق غزل " نشيد الأنشاد " *

والشعر العربى :

* أسد الأسفار المقدسة عند اليهود والمسيحيين (المخرم) .

تقول " أغاني الحب " :
" (...) لقد وهبت لك قلبي .
من أجلك إنى أسير على هواه ،
عندما أرقد بين ذراعيك .
فإنّ رغبتى فى أن أقدم على ذلك ،
هر الكحل الذى تكتحل به عينى (...) ..

نقلًا عن الترجمة الفرنسية

(P. Posener Krieger , O.C., P. 76)

لقد وصلتنا رسومات وقنايل ووردية وصفت بدافع الحياء إنها بردية
" غزل " ولكنها ليست سوى مجرد بذاتة ساذجة ومرحة .

ويغلب على العلاقات الزوجية كما تظهر فى فن المناظر ، سمة المودة
والاهتمام الحانى . ولا يتخلل النحاتون والرسامون إلا فى القليل النادر
عن قائمة الأوضاع التقليدية إلا إذا استثنينا عصرى الممارنة والرعامسة
الذين خلفا لنا لقطات من حياة العائلة المالكة الخاصة لها سمات تلقائية
جعلها أقرب إلى قلوبنا ومشاعرنا . ويميل أدب القصة إلى تصوير الغيرة
والزنا أكثر من الحنان والبهوى ، أما التقارير الرسمية والنصوص القانونية
فقد أصبحت بدورها صدى للمظالم والمنازعات والمشاجرات التى تروج بها

يموت هذا العصر . بما فى ذلك الحرم الملكى الذى كان المكان المفضل
للدساتس والمشاحنات . وتؤكد المراسلات الحقيقية أو الخيالية على
العلاقات المشبعة بالحب والود والمثال على ذلك هذا الخطاب الموجه من
أحد الكتبه إلى زوجته المتوفاة :

" أيها التابوت الميجل حيث ترقد منشدة آمون ، الأوزيريسس *
" أختاي " ، إنصت إليّ ، وبلغ (هذه) الرسالة . أنت القريب منها
أطرح عليها هذا السؤال " كيف صحتك . وأين تقيمين ؟ " وأخبرها "
ياللمصيبة إذ فقدت " أختاي " الحياة " . هكذا يتحدث أخوك ويرفبك
وياللمصيبة ! أنت الجميلة جداً ! أنت التي لا مثيل لجمالك ! وكان
يستحيل على المرء أن يجد شيئاً قبيحاً فيك . إني أناديك (لك) كل
لحظة . ردى على (من يتأديك) . "

الأسرة المصرية العادية أسرة ولود . وكان يبدو أن عدد الأولاد في
البيوت كان لا يتعدى الإثنين في المتوسط لارتفاع نسبة الوفيات بين
الأطفال أو لأنهم يرسلون في وقت مبكر إلى المدارس أو إلى حيث
يتدربون على حرفة . وفي حالة انفصال الوالدين ، لا تشير وثائق
الطلاق أبداً إلى من هو كفيل الأطفال . ويبدو أنها كانت مسؤولية الأب
كما يستدل من جميع الحالات التي نعرفها . ولكن من المحتمل أن الوليد
كان يظل لعدة سنوات في حضنة الأم . وليس هناك مبرر لإثارة المشاكل
حول هذا الموضوع . كما أن المسألة لم يترتب عليها مصاعب من أي
نوع . ومن ناحية أخرى كانت مشكلة عقم الأزواج تسبب لأصحابها
الهموم والمشاكل على ما ابتلاهم الدهر . وإذا لم تفلح الصلوات وتقديم
التلويح للآلهة المختصة في الوصول إلى نتيجة ملموسة ، وعندما تبوء
جهود الأطباء والسحرة بالفشل ، فلا مجال أمامهم سوى إسقاط هذه
العاطقة على طفل الحبيب الغير . ولكننا نجهد إذا كان هذا الإجراء من
الناحية القانونية هو ضرب من ضروب الرعاية أو أنه عملية تهنئ
حقيقية .

* كان موت أوزيريس الذي تلت قيامة ياعنثا على الاعتقاد بأن كل شخص يتهم بدم
معه .. وأصبح الملك الميت أوزيراً منذ نهاية الأسرة الخامسة . ولم يصبح الميت من
الشعب أوزيراً إلا عند مطلع الدولة الوسطى . (المترجم) .

٢ - المنزل

سبق لنا في أكثر من مناسبة أن تحدثنا عن المباني والسماط العامة للمساكن سواء في الحضر أو في الريف وحيازتها كحق من حقوق الوظيفة ، كما تناولنا قيمتها المادية . وعلمنا الآن أن ندرسها من خلال وظيفتها الخاصة كخلفية للحياة الخاصة . ويحل المرء إلى تصنيف المسكن إلى فئتين كبيرتين : أولاً ، الديار الفسيحة والضياح التي تؤلف حول نواة العائلة جمهوراً من العاملين . ثم البيوت المتواضعة حيث تقيم العائلة بمعناها الضيق المحدد .

في ظل جهلنا لكل ما يتعلق بالتخطيط الذي على أساسه ينهض أي مشروع زراعي متوسط أو منازل العمال غير المهرة والخدم مقارنة بمنزل رب البيت ، وطريقة تناول وجبات الطعام والعلاقات التي ربطت بين هذا الجمع من الناس ، فنحن مضطرون إزاء هذا الجهل ولتوضيح صورة مساكن الفئة الأولى أن نلجأ إلى التخطيط المعماري لمنازل مدينة سنوسرت الثانية * الهرمية ومنازل كبار الموظفين في عاصمة أمتحتوب الرابع (إختاتون) ومشاهد الحياة الخاصة في مقابر الدولة الحديثة .

يغطي كل منزل من منازل اللاهون مساحة تقدر بحوالى ٢٤٠٠ متراً مربعاً وهي تتكون من قطاعات منعزلة بحيث يسهل تحديد وظيفة كل منها من أول نظرة : للمطابخ والمخازن باب خاص بالخدم . ولها باب مشترك يقود إلى دهليز يقضى بدوره إلى الفناء والباكبة الذين

* من ملوك الأسرة الثانية عشرة . وهرمه المشهد في اللاهون عند مدخل القيسوم (المترجم) .

تطل عليه مختلف أجنحة المنزل الخاصة . وهي منفصلة بعضها عن بعض بشكل واضح مميز . وللمحظائر مدخل مستقل . وتتكون هذه الدار من ٧٠ حجرة خصص ثلثها لإقامة عامة الناس . أما بقية الحجرات فموزعة بين الألفية الداخلية التي يبدو أنها لتسهيل الانتقال بين أجنحة المنزل وتخصص للمقابلات والاستقبالات . وهناك قاعة صغيرة ذات أعمدة أربعة ربما استخدمها رب البيت كمكتب خاص هذا إلى جانب مجموعة من الحجرات الموزعة على عدد من القطاعات .

أما منازل العمارة فهي أقل مساحة من المنازل السابقة . إذ تقدر في المتوسط بـ ١٢٠٠ م^٢ . ومع ذلك فالأجزاء المكونة للمنازل موزعة داخل حديقة مسورة تتراوح مساحتها بين ٢٠٠٠ م^٢ و ٤٠٠٠ م^٢ . ونلاحظ أن العناصر المعمارية التي ترمز إلى الخطوة والنفوذ متوفرة في الدار : من بوابات شامخة إلى درج فخم ومدخل مسقوف وقاعات استقبال . هذا إلى جانب وسائل الراحة الأخرى مثل الحمامات التي تظهر هنا لأول مرة . وكان المبنى المخصص لإقامة أهل الدار ينقسم إلى قطاعات مستقلة غير معزولة تماماً عن بعضها . ولكن المبنى كله معزول عن الأقسام المختصة بالخدمات المنزلية كالطبخ والمخازن والمحظائر الملاصقة لسور المنزل الخليلي .

أما مخازن الغلال فعلى العكس نجدها مكشوفة أمام أعين الزوار . أما الهيكل فهو محاط بحديقة صغيرة وله مدخل خاص فخم إلى جانب مدخل آخر بعيد عن الأنظار . وتوضع بعض الصور مناظر الولايات المقامة على أنغام اللوق المرسية والتي يحضرها أفراد الأسرة . أو مناظر أكثر خصوصية تمثل تزيين السيدات وقد استسلمن لوصيفاتهن .

ويفضل البقايا الأثرية والإنشائية والمدونات التبقية من قرية دير المدينة ازدادت معارفتنا حول تنظيم مساكن العمال والحياة داخلها .

يغطي المسكن الواحد مساحة تتراوح بين ٤٠ و ١٢٠ متراً مربعاً .
ويتكون من المعتاد من سلسلة متعاقبة من الحجرات ذات أبعاد مختلفة .
ويتكون جميعها من طابق أرضي . وتقع الحجرة الأولى عند مستوى
أدنى من الطريق . والمدخل هو مصدر الإضاءة الوحيد . والحجرة مكرسة
لعبادة الأجداد وعبادة الآلهة المنزلية حماة الخصوبة والولادة ، وبها مذبح
فوقه نصب حجريد وقنايل نصفية للآلهة المنزلية أما الحجرة الثانية فهي
مستوى الطريق نفسه . وهي أكبر من الأولى وسقفها أكثر ارتفاعاً
ويدخلها النور من خلال نوافذ محمية بشبكة وموزعة في أعلى
الجدران . وسقفها مرفوع بواسطة أسطون مركزي . وبها مقعد . وغالباً
ما تزين الأبواب الوهمية جدران الحجرة . وقد صور عليها منحوتب الأول
راعى القرية وحاميتها وأمه أحسن تفرتارى ومختلف الآلهة . إنها حجرة
المعيشة . فيها يستقبل أصحاب البيت ضيوفهم ويتناولون الطعام وفيها
كانوا بالتاكيد يقضون لياليهم وينامون . قماماً كما هو الحال في بيوت
الفلاحين في الوقت الراهن . وتشغل حجرة أو حجرتان صغيرتان المكان
الذى ترك شاغراً بسبب وجود السلم الصاعد إلى سطح المنزل وإلى المر
الموصل إلى المطبخ وملحقاته من قهو ومخزن غلال . والمطبخ مجهز بفرن
لإعداد الخبز وبالأجران والمعاجين . وقد حضرت النساء القائمات على
خدمة أهل القرية للمعاونة في طعن الحبوب . أما خزانات المياه فموجودة
في الهواء الطلق . وإلى جانب ما يوجد في كل حجرة من تجهيزات
خاصة بها تتوزع على الجدران أكثر من كوة ، وتحتوى الحجرة على أثاث
متواضع مصنوع من الخشب أو الحجر بها مقاعد وكراسي ومساند للرأس
وأسرة وصناديق وحصر وسلال وأدوات من السيراميك وبعض
المنسوجات . وأغلب الظن أن نساء القرية وأطفالهن الصغار كانوا يقضون
معظم نهارهم في هذا المكان المسور ولكن الشوة كن يتزاوين ويناقشن
بحرارة آخر أخبار أهل الشاطيء .

٣ - الجيران

كان المصري يحافظ بالطبع على علاقات الجوار والصدقة مع أشخاص لا ينتمون إلى أسرته أو أفراد بيته . وقد ثبت ذلك دون لبس من الشواهد النادرة التي وصلت إلينا . غير أن المصري لا يسترسل كثيراً حول حياته الاجتماعية التي تمت وتطورت في الأغلب من خلال عالمه المهني ، ومع ذلك فقد دفعت بعض المناسبات إلى الخروج من عالمه المألوف : كالأعياد الدينية الكبرى والمظاهر الرسمية للملكية التي تلتقي فيها أحياناً نوعيات مختلفة من البشر . كما التقي المصري أثناء الحروب والأسفار بعادات وعقليات ، أثارت أحياناً حيرته ودهشته . ولكنه عرف كيف يحاور ويقيم علاقات رديه إذا اقتضت الظروف ذلك . أما الأسواق فكانت الإطار الذي يجتمع فيها تجار من أصول مختلفة بالسكان المحليين ولكننا لا تعلم إن كانت هذه الاتصالات أفضت إلى علاقات منتظمة و طبيعية أم ظلت طائفية على السطح دون تأثير جوهري . وقد زاول المصري بعض الأنشطة القليلة خارج مجاله المهني كالمبارزات الرياضية والصيد البري والصيد البحري وممارسة المسؤوليات الإدارية المحلية والممارسات الدينية وإقامة الولائم ولكن كلها دارت في إطار القرية أو الحى الضيق أو المنطقة على أكثر تقدير .

ولا تذكر مصادرتنا سوى القليل النادر عن هذه المواضع . إذ أن تصويرها لا يأتي إلا عرضاً . وإن حدث فإنه لا يحتوى إلا على إشارات هزيلة حول خلفية كل حدث وهوية كل شخص والمعنى الحقيقي للمواقف الشائخة أمامنا . كما أن الشهادات التي توفرها لنا المراسلات يعيبها ما يعيب المراسلات بشكل عام من حيث أنها تحمل إشارات غامضة ومبهمة عن مواضع لا يعرفها سوى أصحابها ، الأمر الذي يحد من قيمتها كوثيقة . وإضافة إلى ذلك فإن المصري يخلط في مراسلاته بين المسائل

الشخصية والمهنية . إذ يفترض أن من يرأسه ، سواء كانت زوجته أو كان قريباً أو صديقاً أهلاً لشقته . عليه أن يحل هذه المشاكل وتلك . إذ يبدو أن الحياة الخاصة عند المصرى القديم كانت تنتمى إلى الحياة العامة أكثر مما درجنا عليه فى أيامنا هذه . وربما كان اختيار الأشخاص الذين يقرر المصرى فى نهاية المطاف تصويرهم على جدران العمار هو خير تعبير عن نوع العلاقات التى كان يميل إليها أكثر من غيرها . فقد وقع اختيار بعضهم على رؤسائهم ، وآخرون على الأصدقاء ، وفضل لربى ثالث الخدم الأوفياء . وقد جاء هذا الاختيار مقترناً بسماتهم الشخصية وعلاقاتهم الفعلية مع كل منهم . ولكن هنا أيضاً يظل هامش الإضافة الحقيقية ضيقاً جداً ويعبر عن كثير من الأحوال عما هو اصطلاحى وتقليدى .

ومرة أخرى نصل إلى ضرورة حصر دراستنا فى مجتمع دير المدينة . ومن نافلة القول أن هذا الاستقصاء لا ينسحب على غيره من الأوساط الاجتماعية . وإذا استبعدنا عمل أهل القرية ، بمعنى الكلمة ، وعلاقاتهم بالسلطات المحلية التى دأبت على تكليفهم بأعمال جديدة ، فقد أفنى عمال القرية أنفسهم لتحقيق متطلبات حياتهم الجماعية مع درابتهم بواقع الأمور فى البلاد وانعكاساته على أحوالهم المعيشية . صحيح أن مهمة الرؤساء هى السهر على التوزيع العادل لحصص الغذاء وحسن سير الخدمات العامة (كتزويد أهل القرية بالماء والتقسيم السليم لساعات عمل العبيد فى كل بيت إلخ . .) وضمان الاستقرار فى موقع العمل أو فى القرية ، معتمدين على الأساليب الوقائية بمساعدة الحارس والبوابين وشرطة الجبلان ، فيلجأون إذا اقتضى الأمر إلى المحكمة المحلية . ولكن يقع على عاتق الجميع ، بما فى ذلك النساء ، التنفيذ اليومى لكل هذه الأعمال . فيتناوب البعض على استلام المواد الغذائية ، ويتم نقلها على حمبر قام البعض بإعارتها أو تأجيرها . ويبلغ آخرون عن المخالفات

القانونية التي ضبطها عملاً بالقسم الذي أقسموه عند انخراطهم في فريق العمل ، أو ينضمون إلى جماعة المحلفين إذا اقتضى الأمر . ولا تستقيم الأمور دائماً لإدارة القرية . ولا تظهر دائماً قاعلية محاولاتها غير المتوازنة في الحفاظ على الانضباط الضروري ، مع وجود المقابر الملكية بما تحتوية وما يترتب على ذلك من إغراءات . فكثيراً ما تشور القلاقل وتهتز هذه الجماعة الصغيرة ، إذا حاولت إحدى الشخصيات الأقوى من غيرها التعبير عن رأيها . وعلاوة على ذلك يجتمع أهل القرية يومياً في العديد من المناسبات : كالأعياد المحلية والعبادات الجماعية بالإضافة إلى مناسبة إصدار ترخيص باستخدام الجبانة ومواصلة البحث عن مدخل المقبرة القديمة أو أعمال تشييد المقبرة الجديدة . حيث يتوافد العديد من الزملاء فيجتمعوا للمساعدة والمعاونة .

ورغم أن العلاقات التي تربط القرويين هي جوهر صلاتهم الاجتماعية إلا أن هؤلاء الناس برجالهم ونسائهم لم يتفلقوا على أنفسهم . لقد اعتادوا تبادل الزيارات مع أقراء أسرهم المنتشرين في المنطقة بمناسبة مولود جديد أو جنازة أحد الأقارب . كما يتوجهون إلى القرى أو المعابد المجاورة أو إلى السوق القائمة عند شاطئ النهر . وينتقلون إلى البر الآخر لإنجاز بعض الأعمال كما تشهد على ذلك العقود التي تقف هذه المعاملات وبعض الخطابات التي تحدد مواعيد إنجاز الأعمال المطلوبة أو التعليقات الخاصة بالتنفيذ أو الملاحظات حول عيوب ما تم تسليمه . إن بعض رجال القرية ، لا سيما الرؤساء منهم ، يعملون أحياناً القاباً دينية شرفية . هم وزوجاتهم . ويرتبطون بعبادات أحد معابد المنطقة ، ويشاركون على ما يبدو في إقامة الشعائر ، كمنشدين مثلاً ، وأثناء الاحتفالات الخاصة ، أو أعياد الإله ، على وجه التحديد .

٢ - الممارسات الدينية

تحتل أعمال الورع والتقوى مكانة عالية فى حياة المصرى اليومية سواء كان ملكاً أم من رجال البلاط أو من عامة الشعب ، فالمصرى يعيش فى بلد غنى بآلهته . ولكنه وقبل كل شيء كان يميز آلهة مدينته عن غيرهم ، فيجلهم بأساليب مختلفة حسب وضعه الاجتماعى ، فيتولى فرعون بناء المعابد على طول البلاد وعرضها ويجهزها بكل غال ونفيس . ويشيد الأعيان هيكلاً صغيراً أو ناروساً يوضع فيه الإله ، أو نصباً حجرياً أو مجرد تمثال . أما عامة الناس فيفعلون نفس الشيء ولكن بالمشاركة الجماعية . ويستطيع المصرى أن يشغل أيضاً منصباً كهنوياً فى أحد المعابد القريبة منه حيث تتم الفرائض الدينية بانتظام . وإذا اضطرت الظروف للإقامة بعيداً عن مدينته ، يتوق شرقاً إلى آلهته ويضيق بهمه عنهم . ولكنه يتظلل بحماية آلهه محل إقامته . بل وقد يمنح مناصب شرفيه فى خدمتهم . وكانت المراسلات خير صدى لهذه الممارسات . كما أشارت إليها المخريشات . فلا يتطرق كاتبها إلى صلب موضوع الرسالة دون أن يطلب مراسله حماية ورعاية آلهة المدينة التى يعيش فى كتفها . ونكتشف بالتالى جهة إصدار الوثيقة .

تعتبر كبرى أعياد التقويم المصرى أعياد عامة يشمل الاحتفال بها الجميع وتمنع فيها العطلات الرسمية . أما الأعياد الخاصة بالمناطق مثل تزاوير آلهة إحدى الجهات لآلهة جهة أخرى مجاورة فهى أعياد محددة يحتفل بها فى نطاق المنطقة فقط . ويتم الاحتفال بإبحار مركب الإلهة أولاً بالمراكب ثم ينتقل مركبها من معبد إلى آخر . ويخرج المصريون وقد تزينوا بأحلى ما عندهم ليشاركوا فى هذه الأعياد أو يشاهدونها . والأعياد العامة موزعة على مدار السنة على أساس عدة أعياد لكل دورة من دورات القمر . وهذه الأعياد متنوعة منها عيد من أعطى إسمه



شكل ١٠ : شارة الإلهة " عنقت " من دير المدينة . " متحف اللوفر "

لكل شهر من شهور السنة . وغالباً ما يرتبط بفصول السنة : كحلول
الفيضان والحصاد إلخ .. ومن الأعياد ما يكرم الروابط التي تجمع بين
الآلهة ، أو لها الطابع الجئاني أو إحياء ذكرى أحد فصول قصة حياة
أوزيريس . وأعياد أخرى تخليداً لذكوري أكثر الملوك
المثوين شعبية وذلك في ذكرى اعتلائهم العرش أو وفاتهم . ولا يجمع
هذه الممارسات الدينية الجماعية نسفاً واحداً . فمن الأعياد ما تنتقل فيها
الجماعات من مكان لآخر . وأخرى تقام لها الاحتفالات في عواصم
الأقاليم أو في أصغر النجوع على حد سواء . ومن هذه الممارسات ما
يفتح المجال لبعض الطقوس الدينية أو سكب الحمر إكراماً للآلهة أو تقديم
الأضاحي والقرايين . أو اجتماع الاسدقاء حول موائد المحبة .

ومن ناحية أخرى ، يعيش أفراد الشعب في الإطار المحدود لقريتهم
أو منطقتهم . ويكثرون من الصور المقدسة . ويجعلون من كل واحدة
ركيزة نوعية لمعتقد متفرد وأضافوا الحيوانات المقدسة والألوية والرموز
التي تمثل هذه الآلهة . كما يخلعون على عناصر البيئة الطبيعية قوة
خارقة . مثال ذلك قمة مرتفعات طيبة . فهي تارة ثعبان وتارة أخرى
ليونة . وهي أيضاً محبة للصمت . ويرحب المصري بحساس بالطقوس
الدينية الرائدة إليه من أرجاء مصر ومن الأقطار الأجنبية والتي ينقلها
إليه الأسرى الأجانب والعمال الحرفيون عند انتقالهم من موقع إلى آخر .

وهذا المجمع للآلهة الشعبية تدور من حوله ممارسات دينية بسيطة . مثال
ذلك " لروح الأذن " * التي تهدف إلى ضمان نقل تضرعات مقدمي
هذه الندود إلى الآلهة . ويتشكل جمع صغير من الكهنة حول هذه الصور
المقدسة وما يتولد منها من رموز . كما تنهض المباني المقدسة لخدمتها .

* لروح متميزة لأن مظهرها مثل أدنا آدمية أو أكثر وتعتبر عن استجابة الإله للدعاء
(المراجع) .

وتقدم لها القرابين بانتظام . وتضمن المواشى للتضحية بها . وتصنع الجمعة
الطازجة خصيصاً لها . ويجتمع نفر من المؤمنين حول هذه الصور المقدسة
احتفاءً بعيدها . وتسير مواكب أكثر الصور تقديساً وتبجيلاً وتكشف
عن الغيب بما لها من قدرات . كما تقام على مقربة من أسوار المعابد
الكبرى ، الطواهر الثانوية للديانة المصرية وقد تشبعت كثيراً بالسحر :
من مكاشفة الغيب وتفسير الأحلام وأعمال التنجيم وبيع التعاويذ
والرقى . وكلها منتجات ثانوية شاعت وانتشرت فى هذه الأوساط
المقدسة . ولكن الديانة المصرية لا تنحصر بمختلف أشكالها ومظاهرها لدى
المعابد والهيكل . فيضم كل منزل رسومات ونصب حجرية وقنايل صغيرة
تجلب على أهل الدار نعم الآلهة العظمى والآلهة الصغرى والمتوفين . إن
ممارسة أعمال البرع على مستوى الفرد ومستوى الأسرة من الأمور
الشائعة . ومن أبسط مظاهرها بالطبع ما اختص به المصريون موتاهم من
طقوس . وقد انتشر اعتباراً من الدولة الوسطى رحلات الحج إلى
أبيدوس إلى جوار أوزيريس أمير أهل الغرب . أى الموتى .

٥ - شغل اوقات الفراغ

لقد أصاب الملك الملل . فقرر أنبازه الترويح عنه . فأخذوا يتصورون كل بدوره على مسامعه ما حدث من مآثر منذ القدم في زمن الأجداد . وتلك هي الفكرة التي ابتدعها مؤلف قصص " بردية وستكار " للربط بين مختلف قصصها وتقديمها للقارىء . وتجسد إحدى هذه القصص شخصية الملك سنfro مؤسس الأسرة الثالثة * بعد أن هامت كل محاولات الترفيه عنه بالفشل . أما ساحره فلم تعوزه الحيل :
" فليذهب جلالتك إلى بحيرة القصر - له الحياة والرغاية والصحة . وجهز قارباً ترافقك فيه جميع جميلات القصر . وسوف ينشرح قلبك إذ تشاهدمن يجدفن سمرداً ونزولاً (..) " وراقت الفكرة للملك .

* وأكد الملك أنه ينوى القيام بنزهة على سطح الماء . أحضروا لى على النور عشرين مجدالاً من الأبنوس المطعم بالذهب ذات مقابض من خشب الصندل المكسو بالذهب ، وأحضروا عشرين امرأة أجسادهن ونهودهن جميلة ومجدولات الشعر ولم يلدن . أحضروا لى أيضاً عشرين ثوباً من الشباك تسلّم للنساء لبسها بعد أن يخبرن من ملاسهن " (نقلاً عن الترجمة الفرنسية

(G. Lefebvre op. Cit . P.78)

* كتبت هكذا لى الأصل الفرنسى . ولكن من المعروف ومن المتفق عليه أن سنfro هو مؤسس الأسرة الرابعة وبانى أول هرم كامل (دشنور) لى تاريخ العمارة المصرية وبائد الملك خوفو بانى الهرم الأكبر . وقد عُبد سنfro لى سيناء وأصبح أحد الآلهة الخامية لهذه المنطقة الهامة من أرض مصر (المترجم) .

أما ملوك الدولة الحديثة فقد اشتهروا بممارسة فنون الصيد فى صحارى مصر وفى النوبة أيضاً . حيث بطاردون الأسود وأبو حراب والنيتل ويشخوهم ضرباً بالسهم . إن الصيد البرى والصيد البحرى رياضتان وتعبيران رمزيان عن انتصار فرعون ورعيته على قوى الشر . كما يمارس الصيد أيضاً فى بحيرات الفيوم والدلتا لصيد فرس النهر والتماسيح بالحرايب . أما الصيد فى المسطحات المائية فيستخدمون الشباك لصيد الأسماك أو العصا المرتدة * لصيد الطيور المائية أثناء طيرانها . كما كان لرياضة المصارعة هواتها . فاعتاد المصريون إقامة مباريات المصارعة والألعاب التى تعتمد على مهارات أصحابها . واعتبرت مأثر منحوتب الثاتى فى رمى السهام بجديرة بأن تسجل على نصب حجرى أقبم خصيصاً لتخليد هذه المناسبة .

أما الرقص أو الموسيقى والغناء فتغلب عليها المسحة الدينية حتى إذا كانت تتم لأغراض دنيوية محض . ومع ذلك فيبدو أن جو الولائم الراقية التى كانت محببة إلى قلوب المصريين ما كان ليكتمل بدون الجوقات الموسيقية . والشاهد على ذلك نقوش ورسومات المقابر . كما أن فريقاً متواضعاً من عازفى الآلات الموسيقية كان يرافق رُكات العمال الذين عاشوا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . أما المسرح فقد كان قاصراً على ما يبدو على الدراما الأسطورية ولم يخرج من حرم المعابد المقدسة . كما حدث بالنسبة للفنون الأدبية الأخرى كالقصة والملاحم الأسطورية والقصص الأخلاقية والحكم والشعر التى كانت تقرأ أو تتلى أمام الجماهير . وعرفت ألعاب التسلية منذ أقدم العصور ، وقد وضع بعضها فى حجرة الدفن بجوار المتوفى للترويح عنه وتسليته . أما

* وسيت مرتدة لأنها تزد إلى قرب مطلقها إذا لم تصب الهدف ومازال الأستراليون الأصليون يستعملون نفس هذه الوسيلة فى صيد الطيور الآن . (المراجع) .

لعبة الشعيان فهي شبيهة بلعبة الأوزة . أما لعبة " السنت " فهي قريبة الشبه بلعبة " الطاولة " . ويوجد " السنت " مصوراً في الرسومات التوضيحية " لكتاب الموتى " كما وجدت أيضاً أنواع من التسلية التي تعتمد أكثر على الذهن وتقضى باختراع كلمات متقاطعة أدبية . صحيح أن الألعاب والتشيل والأنشطة البدنية والفنية والثقافية ، كانت مناسبات طيبة لإبراز إمكانيات كل من الجسد والفكر ، ولكنها حققت للمصري أيضاً ممارسة أحب هواياته إلى قلبه لشغل وقت الفراغ . إنها هواية المناقشات الصاخبة التي لا تنتهي . ويبدو ذلك واضحاً من النصوص التي ترجع إلى جميع العصور وكافة الأوساط .

الفصل السادس

الحياة اليومية : ظروفها ومميزاتها .

١ - التغذية

تمثل التغذية مكانة بارزة في حياة المصريين كما هو واضح من وظيفة فرعون في توفير الغذاء . " فكلماته هي التي تخلق الطعام " . وفي المقابل ، فإن المزن التي تتعدد عند وصول الملك وجيشه إلى مكان ما تأتي ودأ على نعماته اليومية . إن قائمة المواد الغذائية التي يتم إعدادها في هذه المناسبة ليست بأقل من تلك التي كانت تقدم على شرف ملك فرنسا عند عودته من حملاته العسكرية .

ويتم استدعاء صنّاع السلال لإعداد عشر صوان وخمسمائة سلة ومائة تاج لتزودان بالزهور . ويجرى تجهيز ما لا يقل عن ثلاثين ألف وغبفاً من الخبز وقطعة حلوى من مختلف الأنواع . وعلى ذلك ثلاثمائة سلة مملوءة باللحوم المجففة وبالذبائح . بالإضافة إلى اللبن والزبد وخمسين أوزة وفأكة وخضروات وفحم خشب لإشعال النار . وعلى مقربة من المكان يطلب البعض إحضار مزيد من العسل والخيار والخروب والفلفل . وأهم من كل ذلك مزيد من الخبز والجمعة واللحم والحلوى . وتتواصل قائمة الغذاء فتذكر الزيوت واللحم البقري والطيور وشتى أنواع الأسماك والحمام واللبن والزبد ومزيد من الخضروات . ونوع خاص من الجمصة والنبيط إلخ ... وتراعى الدقة الفائقة في إعداد المائدة وتقديم الأطعمة . غاوانى المائدة من الذهب والفضة . ويقوم بتقديم الطعام أجمل العبيد وقد ارتقوا أزهى الحلل لهذه المناسبة إلخ ... إنه شيء أشبه ما يكون بالولائم الرومانية التي ترمز إلى عصور الإنعطاط . ولكننا هنا نجهد الظروف

التي أحاطت بهذا الاستقبال ووضعيفة الضيف الذي يتولى إعداد هذه الوليمة .

كان الطعام يختلف أنواعه متوفرأ في مصر . أما استيراد الطعام من الخارج لتزويج . ولكنه ترف عمّ معظم الفئات الاجتماعية بدرجات متفاوتة . إذ وجد المنقبون حتى في قرى عمال فرعون بطاقات جرار التبيد وآنية الزيت المستوردة من الخارج . وربما لا ينطوى الأمر على أكثر من هدايا قدمها فرعون وخاصته بمناسبة أعياد البوبيل التي يحتفل بها . إن أساس التغذية هو الخبز المصنوع من الحنطة والجمعة المصنوعة من الشعير . إن التمييز بين الخبز والحلوى غير واضح تماماً . وأنواعه كثيرة ومتعددة تصل إلى المشروبات ويتم تحليته بإضافة اللبن أو البلع أو العسل . كما توجد عدة أنواع من الجمعة والمشروبات الأخرى المنخمة المصنوعة من البلع مثل شراب " السيرمت " . أما التبيد وهو من المواضيع المفضلة والمحبة لدى الرسامين والنحاتين إلا أنه يظل من المشروبات التي تقدم في الأعياد فقط . وصحيح أن اللحوم لم تقدم على المائدة كل يوم إلا أن المصريين يستهلكون منها كميات وفيرة كما أثبتته أحدث الدراسات . ولم ينحصر استهلاكهم في اللحوم البقرية وفيما يصطادونه من حيوانات وفي الطيور والتي تزخر بها موائد الآلهة في المعابد وموائد الناس . ولكنهم كانوا يأكلون أيضاً لحم الماعز والغزال والخنازير المنتشرة في القرى والأرخص سعراً . أما الأسماك التي كان يعج بها النيل والبحر المتوسط والبحر الأحمر فقد اعتمد عليها في طعامه أكثر من اللحوم . وإذا لم يستهلك اللحوم أو الأسماك طازجة فإنه يحفظها أو يحفظها . كانت الحُرُمات من سمات كل إله في منطقته . فأصبحت بعض الحيوانات محل رعاية وحماية أهل المنطقة ، أو صارت مثيرة . كان المصريون يزرعون أنواعاً متعددة من الخضروات والنباتات العطرية ومختلف الفواكه . وقد تعرفنا عليها من خلال صورها أو بقاياها التي

عشر عليها فى المقابر والمساكن . ورغم وجود اللبن ومنتجاته إلا أن استهلاكه لم يكن شائعاً . أما الشحوم الحيوانية والنباتية فقد كان استهلاكها عادياً .

وهكذا فإننا نعرف جميع هذه المواد الغذائية بالإسم وبالصورة ومن خلال الآثار المتبقية التى حفظها جفاف الجو الفريد حتى أيامنا هذه . ولكن تظل أساليب الطهى التى أخذ بها المصريون فى إعداد طعامهم سرّاً مغلقاً . حتى أنه ليصعب علينا القول أنهم قد عرفوا حقاً فن الطهى . اللهم إلا بعض الأساليب البدائية . وفى واقع الحال نشاهد أحياناً على جدران المقابر سواء الطيور أو قطعة من اللحم البقرى أو إنضاج الطعام فى صلصة متبلّة . وقد برزت منه قطعاً عظم أو ثلاث . ولا شيء أكثر من ذلك . قلاً وجود اللحم المفروم أو الخضار على شكل شرائح أو مكعبات أو حلقات . ولم تصلنا وصفة واحدة للطهى أو صنع الحلويات أو إعداد الصلصة . إن النصوص التى تكيل المديح للولائم وتعلق على ما بها من أطعمة يقتصر حديثها حول المراسم المنظمة لها أو ترتيب المواد الغذائية . ولا نتحدث بكلمة عن مهارات رب البيت أو ودة البيت . ربما لأن تعليم فن الطهى يتم بالتواتر الشفهى . ونظّل نحن المعاصرون محبو الطعام الطيب على جهلنا لأسرار فن الطهى المصرى .

ويبدو أن الولائم حتى فى إطارها العائلى تعتبر لحظات متميزة فى حياة المصريين . لقد أحاطوها بهجل اهتمامهم وعنايتهم ، بما يعدون لها من زهور ومخاريط عطرية وجوقات الموسيقى . إن كل ذلك يذكّرنا بهاقات الزهور والشموع والجو الموسيقى فى عصرنا الحالى .

إن منظر المضيفين وضيوئهم المجتمعين فى جو من السعادة حول مائدة كبيرة أو جالسين حول صوانٍ كبيرة ، لهو منظر أبعد ما يكون عن

الواقع والحقيقة ! بل إننا نشاهدهم في مختلف التصاوير جالسين جنباً إلى جنب فوق كراسي أو مقاعد على مقربة من مواقد صغيرة محملة بما لذّ وطاب ويسهر على وأحتهم عدد كبير من الخدم . وتصدح الموسيقى وترتفع أصوات المغنيين لتشيع جواً من المرح بين الحاضرين . وخلافاً لحبوبة الموسيقيين والمغنيين ورفقتهم ، يستنشق المدهورون زهرة اللوتس التي تلامس أنوفهم ويحافظون على توازن مخروط الشحم المطر فوق شعرهم المستعار ، وهو يذوب في بقاء . فانشغلوا بذلك عن تناول الطعام أو تبادل أطراف الحديث مع الجالسين بجوارهم . إن الخطأ خطؤنا ! فإننا نشاهد هنا طقساً دينياً ذا صبغة جنائزية ؛ إنها مأدبة طعام يقيمها بعض المقرين إلى المتوفى وزوجته تكريماً له . فهل نطالب مثل هذه المشاهد أن تعبد إلينا جو المآدب الدنيوية ؟ لقد انخدعنا وخدعتنا كثرة الأطعمة ورقة الخادعات وسحر الموسيقى . كنا نتوقع أن نتمتع بصحبة بهجة . ولكننا فوجئنا باحتفال جنائزي ! .

٢ - الصحة

كان المصري إذا جامل الآخرين تمنى لهم ثلاث أمانى . وكانت الصحة ثالثهم بعد الحياة وبعد بهاء الطلعة التى ميزها عن غياب المرض . إن المعلومات التى وصلتنا عن نظامه الغذائى تنحاز إلى جانب توازن ما يتناوله من طعام : كالحبوب والخضروات الطازجة أو الترنبات والفواكة إلى جانب اللحوم ومنتجات الألبان فى بعض الظروف . لقد سجلت بعض حالات نقص التغذية فى واقع الحال . إلا أنها لا ترجع إلى خلل غذائى واسع الانتشار . حقاً إن مصر قد عانت عبر تاريخها الطويل أكثر من مرة من مجاعات نتجت عن تدنى مستوى الفيضان أو ارتفاعه أكثر من اللازم ولمرات متكررة . ومع استبعاد هذه الحالات ، فلا يوجد ما يجعلنا نفترض أن الفقراء قد تضرروا جوعاً فى الظروف العادية . أما البدانة التى تنسم بها تصاوير طبقة الموظفين الذين وصلوا إلى أعلى مراتب سلم الترقى الوظيفى فإنها دليل ووفرة الغذاء مع قلة الحركة . لهذا السبب لم تحاصر البدانة جسم لمصرى . فمآثره الرياضية خير ضامن لقوته البدنية

تركيزة أساسية لسلطته وسلطانه . لقد قام علماء الأجناس البشرية وعلماء أمراض العصور القديمة بفحص ما توفر لهم من أجساد القدماء . فلاحظوا وجود بعض الأمراض الناجمة عن وجود الطفيليات وبعض العيوب الخلقية والكسور والعمليات الجراحية الناجمة فى بعض الأحيان إلخ .. ويشكل كل ذلك تصوراً عن الحالة الصحية السائدة والحوادث والعلاج المقترح .

واعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة نجد فى المساكن بعض التجهيزات الصحية على درجة بسيطة من التقدم . فنجد مثلاً فى دار رئيس الإنشاءات الذى شيد معبد تحوتمس الرابع الجنازى فى طيبة حاملاً مرتفعاً مجهزاً بأنبوب يتفرج فى جزئه الأسفل . وبعض الطشوت المصنوعة من

السيراميك مرتبة فى حجرة مخصصة للوضوء . أو نجد مقعداً مثقوباً ضمن أثاث رئيس الفرقة " خع " فى دير المدينة . أو حمامات حقيقية مجهزة بنظام صرف كما فى تل العمارنة . ومع ذلك نجد منذ الدولة القديمة شبكة من توصيلات المياه على درجة عالية من الكفاءة داخل المعابد كما نجد نظاماً للصرف الصحى فى قلعة بهوين عند الشلال الثانى والتى ترجع إلى الدولة الوسطى . ومن المرجح أن قصور الدولة القديمة والدولة الوسطى قد عرفت مثل هذه التجهيزات ، رغم أنه لم يكتشف على أى أثر لها فى أطلال مدينة اللاهون . أما القسطنطينية كما تم تصويره على جدران المقابر . فيتم قرب الماء فى طشوت خشبية كبيرة أو من الطين المحروق . وتشهد المكائس البالية التى اكتشفت فى المساكن حتى المتواضعة منها ، على حماس المشرفات على المنازل والحاديات . كما أن طبقات الجير المتكررة التى يمكن حصرها على جدران المنازل تشهد على الاهتمام بصيانة المكان وتحسين الظروف الصحية . وقد أصاب المصريين المرض رغم الرعاية الصحية واستخدام المواد المطهرة كالتطهير للبشرة والجالينا * للعيون .

وعندئذ يلجأون إلى الطبيب ، كاهن الإلهة " سخمت " أو مروض الثعابين أى الساحر . وفى أغلب الأحيان يتلازم الأسلوبان ضمناً للعشفاء . ويفضل عشرات البرديات الطبية التى خلفها الزمن نعرف الكثير عن الطب المصرى بفضل ما تحويه من أبحاث . منها بحث عن القلب وأوعيته ، وبحث عن أمراض المعدة . وبحث فى الظواهر المرضية

* الجالينا ، هو كهرتيد الرصاص . وقد استخدم كحلاً منذ أقدم العصور إلى العهد القبطى . ويستخرج من خامه بعملية صهر بسيطة ويوجد بكثرة بجبل الرصاص على بعد ٧٠ كيلومتراً من الأنصر (المترجم) .

الخارجية وفي جراحة العظام إلخ ... ومجموعات من الصفات العلاجية مصنفة حسب موضوعها كالعيون والأذن إلخ ... وإذا تبادر لنا هذه الأساليب متناقضة إلا أن الأطباء الممارسين والمرضى أنفسهم لم يروا أى تعارض بينها ، بل اعتبروها متكاملة . ورغم ما اقتضته تقاليد التحنيط من جراحات ، إلا أن المصريين على ما يبدو لم يكتفوا على دراية بتشريح الجسم البشرى ولو بشكل تقريبي . أما أمراض النساء والولادة فقد كانت محل اهتمام الأطباء الذين وصفوا العديد من الأمراض والعيوب الخلقية وطرق علاجها . ومن الأمراض المنتشرة فى مصر القديمة رمد العيون وعض الشعابين ولدغ العقارب والبعوض والجروح بمختلف أنواعها وإضطرابات الهضم ومختلف أنواع الحميات . ونعرف أن الأطباء بمختلف ألقابهم ووظائفهم يؤهلون منذ الدولة القديمة تأهيلاً شبه علمى أو سحرى ودينى فى دور الحياة الملحقه بالمعابد . وهم يعالجون أعراض المرض وآلامه بالأدوية الشراب أو المراهم أو التدليك إلخ .. كما يعالجون مسببات المرض - ربما يكون المريض أغضب أحد الآلهة . فبشمل العلاج قرارة الرقى أو حمل تمويذة . ولكل موقف تعويذة مناسبة أو تقديم التضرع إلى الإله الغاضب .

٣ - الملابس والآزياء

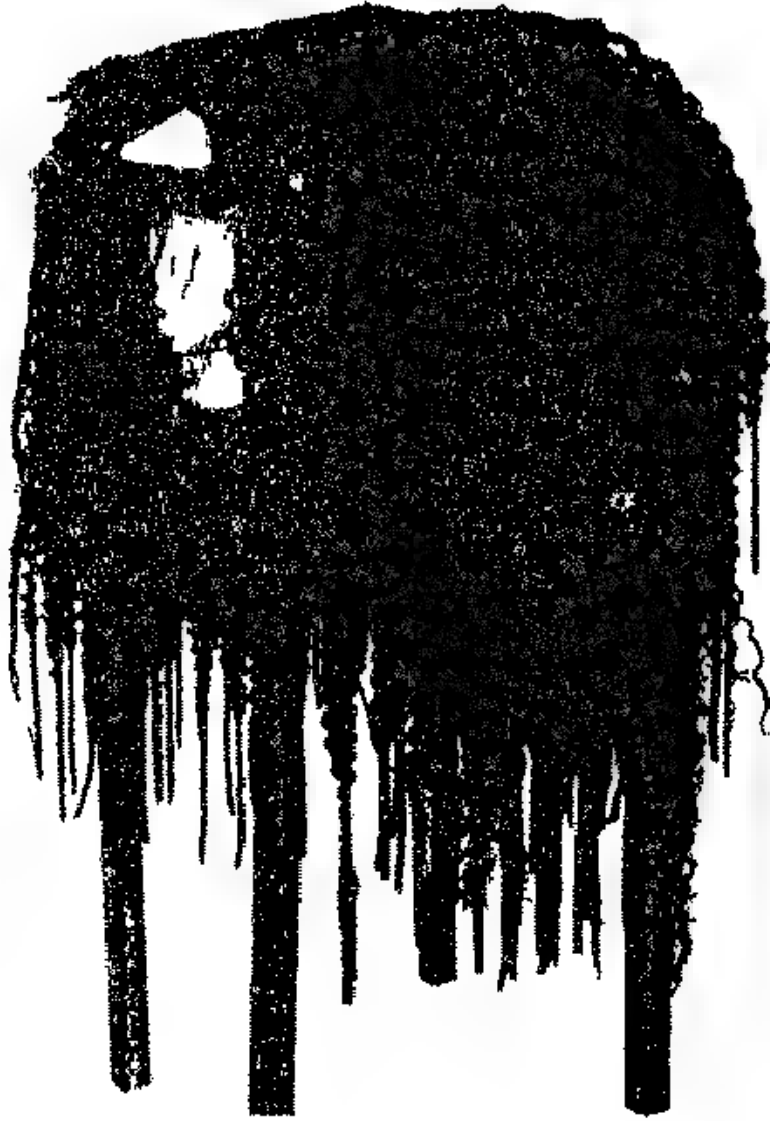
وللتعرف على مختلف أنواع أزياء المصريين تشوفنا لنا مجموعات عديدة من المستندات وهى الملابس ذاتها ، إذا ما حفظنا لنا الزمن من البلى . ثم القوائم الخاصة بمراقبة غسل الملابس وتوزيعها . وما ذكر عنها فى العقود . وأخيراً المناظر المختلفة . وإذا اعتبرنا مسبقاً أن هذه المصادر الثلاثة متكاملة إلا أنه يندر أن تشلق معاً فى واقع الأمر . فلم نتعرف سوى على القليل من أسماء الأقمشة والملابس بما لا يدع مجالاً للشك . إن الملابس الكتانية الناعمة ذات الشاي والشفافة التى يرتديها الرجال والنساء على حد سواء ، فى تائق ، والتى نشاهدها فى رسومات ونقوش وقنايل بعض المعصرين يصعب مقارنتها بالشواهد الأخرى غير الدقيقة التى وصلت إلينا . أو إيجاد أى وجه شبه بينهما . واختلف موقف المصريين من العرى عن موقف أهل الحضارات الحديثة . فالعرى من سمات الطفولة فى مصر القديمة . أما البالغون ، فالرجل عارى الصدر والكفين ويرتدى نقبة قصيرة إذا زاول أعمالاً يدوية ، أو نقبة طويلة فى الحالات الأخرى . أما المرأة فترتدى سروالاً فضفاضاً ينتهى فى أعلاه بحالتين عريضتين تتركبان التهدين عاريين . وغالباً ما ترتدى ملابس رقيقة شفافة تبرز محاسن جسدها ومفاتنه . أما الخادومات فيظهرن أحياناً وقد ارتدين ساتر العورة فقط . ويرتدى الرجال نقبة صغيرة مثلثة كساب داخلية . ولم يحفظ لنا الزمن ملابس داخلية نسائية .

كان عمال الجبانة شأنهم شأن غيرهم من فئات الموظفين يتسلمون ملابس خاصة بالعمل : السروال (مس) ، والنقبة القصيرة " روجو " أما الرؤساء فيرتدون نقبة طويلة أو شالاً كبيراً " دايو " ، وفى بلاط سبى الأول فى مدينة منف كان النوعان الأول والثانى من هذه الملابس من نصيب الجوارى . ويظهر النوع الثالث فى خزائن ملابس السيدات .

وإذا عرفنا أن الأزياء تتكون عادة من قطعة نسيج من الكتان ذات مقاسات أو أطوال متباينة يلتحفها الشخص حسب مقتضى الحال لأدركنا السبب الذى جعل المصرى لا يفرق بين الزى الرجالى والذى النسائى . كما يبدو أن مصر لم تعرف فى حقيقة الأمر سوى زى واحد هو السروال ، ولكنه موزع على عدة طرز . كما يتضح من المناظر : السروال الطويل أو القصير ، والفضفاض أو المجهرك . وتنقسم العينات التى اكتشفت إلى مجموعتين : فسراويل المجموعة الأولى تتكون من قطعة واحدة بدون أكمام وياقتها بسيطة وتحاك من الجانبيين . أما المجموعة الثانية فتتكون من ثياب حقيقية شبيهة بشيانا . وهى تتألف من قطعة نسيج مستطيلة الشكل وأكمام ومفتوحة عند الياقة . ويبدو أن المعطف قد تم تصبده بنفس الطريقة . كما شملت مجموعة ثياب توت عنخ آمون على عدة قفافيز .

أما ملابس الأفراد فقد تحلت أحيانا ببعض الثياب أو الخبوط المبرومة . وتم اكتشاف بعض الثياب على هيئة شباك وقد صنعت وفقاً لأسلوب المكرمية . وهى تذكرنا بزي مجدعات سفرو . ولكن أعلى الأزياء وأثمنها اكتشفت فى المقابر الملكية . وقد تحلت بزخارف نسجت بخبوط ملونه أو مطرزة أو بإضافة قطع النسيج . وأطراف الثوب مكففة أو ذات هدايب أو بها أشرطة ذات لون واحد أو متعددة الألوان . كما تم اكتشاف نسيج من الكتان يملوه ما يشبه الوبر تقليداً للفراء . ولكننا لم نهتد إلى الغرض منه . وكذلك رداء مرسوم يشبه جلد الفهد الذى كان يرتديه الكاهن " سيم " . وهذا الرسم يرجع إلى العصر اليونانى الرومانى . وقد وصلنا بقايا ملابس استطاع الدهر أن يحفظها بفضل مناخ مصر الفريد . وهى موزعة على امتداد تاريخ مصر بدءاً من عصر الأسرات الأولى . وعدا بعض الاستثناءات النادرة فإن الملابس التى قارمت عوادي الدهر هى التى صنعت من أقوى الأقمشة وبالتالى الحشن منها .

واستناداً إلى ذلك فهي تقدم لنا صورة غير كاملة عن الزي المصرى .
وتبدو لنا أن طرز الأزياء محدودة لأول وهلة . ولكن إذا أخذنا فى
اعتبارنا ما أدخل عليها من تعديلات شتى بفضل استخدام الأنسجة
المختلفة والبراعة فى تشكيل الثنايا ، لأدركنا مدى الجانب الإبداعي
لذوق تصميم الزي المصرى ولحسن الحظ فإن التصاوير تقوم بسدّ النقص
فى المعلومات المستمدة من البقايا المكتشفة . صحيح أنها تؤكد ثبات
الزي المصرى . إلا أنها تكشف عن نماذج خاصة للملابس الأعياد واعتناء
المصريين بالأقمشة المزركشة المستوردة من الخارج مع بداية الدولة
الوسطى . كما تبرز الاختلافات بين زى ملابس السيدات والخدمات ،
هذا غير الملابس المميزة المخصصة للآلهة وبعض الكهنة . أما النعال فقد
صنعت جميعاً طبقاً لنموذج موحد . فطرف النعل الأمامى معقوف مع
وجود لسان بين إبهام القدم والأصبع الثانى . وقد صنعت من الألياف
النباتية المجدولة أو من الجلد الطبيعى المصبوغ باللون الأبيض ما عدا
نعال توت عنخ آمون المصنوعة من الذهب وغير الملائمة للمشى .



شكل ١١ : شعر مستعار لصاحبة السيدة " مريت " من دير المدينة . المتحف المصري
في مدينة تورينو .

٢ - التزيين والحلى

يتضح لنا أن تزيين تماثيل الملك المتوفى أو الإله ، وتزيين الكهنة قبل ولوجهم إلى أكثر قطاعات المعبد قدسية هو الأسلوب النموذجي الذي يتبعه المصري للعناية ببدنه . والتزيين يشمل الإغتسال وتطهير الفم بالنظرون وإزالة الشعر ونزعه وتدليك البشرة بالزيوت والأدهان المعطرة وإطلاق البخور . فقد كان المصري يعطى اهتماماً كبيراً لمظهره العام ، ودليلنا على ذلك جمهور حلاقى الذقن والشعر والعاملين في تزيين الأيدي والأقدام والمشرفات على حسن الهندام الذين انخرطوا في سلك خدم وخدمات صاحب الجلالة أو رجال البلاط . فإهمال الشخص لمظهره يجعله عرضة لإحتقار الآخرين . كما يتضح لنا من المناظر الأساليب العملية التي تمارس يومياً للحفاظ على الصحة والشباب أو الجمال . صحيح أنها لا تقدم لنا مشاهد تزيين حقيقية إلا أنها تكشف عن مدى ما يلفت من تطور بفضل استخدام أدوات الزينة المكتشفة في المقابر أو المساكن . والرصفات التي توصى بها المراجع الطبية . فهذه وصلة تجعل رائحة الفم طيبة . وتلك لتجميل الوجه فتزيل من البشرة الشمس والبقع الحمراء غير المستحبة . ووصفات أخرى لعلاج الصلع أو لإعادة الشباب . وتنبع في ذلك أساليب متعددة بدءاً بالتبخير المعطر بخشب البخور ورائحة شجر البطم إلى إعداد الأدهان باستخدام العسل أو النظرون الأحمر والملح ويمكن إضافة مسحوق الألبستر أو باستخدام الحلبة المغلية .

أما مساحيق التجميل كما هي واضحة في الرسومات فتتوزع على مجموعتين : مجموعة تبرز جمال العين وتعتمد على الكحل والملاخيت* والجاليتا . والمجموعة الثانية تهدف إلى العناية ببشرة الوجه لتضفي عليها حيوية ونضارة . ويتم صنع المراد المستخدمة في أجران خاصة ثم تخلط بزيوت أو أدهان وتحفظ في أوعية صغيرة من الحجر أو الزجاج .

* وهو الكحل الأخضر (الترجمة)

وعند الحاجة تؤخذ الكمية اللازمة للدهان بلمعة صغيرة منقوشة . ومن أدوات حفظ الكحل قنينة توضع فى جراب ومعها مرود . كما أن آلة الحلاقة والملقط تعتبر من مستلزمات زينة النساء والرجال على حد سواء . وتستمد معرفتنا عن العطور من النصوص المنقوشة فى المعامل المقدسة داخل المعابد أكثر مما نعلم على ما يذكر فى النصوص الدينية رغم كل ما عثر المتقربون عليه من قوارير فى التجهيزات الجنائزية المكتشفة . ويعتبر الشعر عنصراً أساسياً للتزيين فاهتم به الرجال أسوة بالنساء وأعطوه عناية فائقة . والشاهد على ذلك كثرة ما خلله المصريون من أمشاط وأدوات تجميد الشعر ودهابيس والشعر المستعار على وجه التحديد . وفى واقع الحال فقد اعتاد الرجل أن يكون حليق الشعر أو قصير الشعر أو يضع شعراً طويلاً مستعاراً . وقد وصلتنا أعداد من الشعر المستعار ظلت إلى يومنا هذا فى حالة جيدة من الحفظ . وهى مصنوعة من شعر طبيعى مجدول بخيوط من الصوف . وعندما يرتدى المصرى ملابس ويتزين فهو لا ينسى لكى يكتمل حسن هندامه أن يستعين بحلى من الزهور وأخرى نفيسة أو غير نفيسة ، مثل أكاليل اللوتس والعقود والصدریات والحلقان والخواتم والأساور إلخ .. ومن خلال المناظر اكتشفنا كيف أن المصرى كان يأخذ انطباعاً حسناً عن حسن هندامه وذلك من نظرات خادمتيه أو المقربين إليه أو من الإنعكاسات الباهتة للمرايا البرونزية المصقولة صقلاً جيداً .

الخاتمة

استطاع المصري القديم في مختلف عصور تاريخه الطويل أن يكون فكرة واضحة عن بلده وحكومة العصر الذي يعيش فيه وعاداته والعقيدة السائدة فيه . فكان في أحكامه متفانلاً تارة أو قانعاً متشائماً تارة أخرى . وقد عبر في أفكاره من خلال بعض الكتابات ذات المستوى الأخلاقي الرفيع اتسمت بفكر ثاقب جعلها قاب قوسين من الفكر الفلسفي . إن قصص خلق العالم التي نقرأها على جدران المعابد أو على جدران العنابر المختلفة ، هي أفكار لاهوتية تحاول تجميع وتفسير الظواهر العلمية أو الأفكار المجردة بالاعتماد على الأساليب المادية والأساطير وفقه اللغة . إن ما تنصح به أحكام الأخلاق الحميدة يتفق ومعظم ما توصلنا إليه من ملاحظات حول العادات والسلوكيات التي تعتبر عادة أو ظلمة حيال الرؤساء والزوجة والمزلاء والجيران والمرؤوسين والفقراء والمتحرفين والمشاعيين والأجانب . ويرجع " حوار البائس من الحياة مع روجه " إلى الفترة الانتقالية الأولى . إنها مواجهة بين إنسان متشائم وروحه الخالدة التي تهدده بأن تهجره إذا لم يستغف من حياته .

وربما كان هذا الحوار أقدم بحث داخل ذات الإنسان في تاريخ البشرية . وما نتحدث عنه ليس مؤلفاً منعزلاً إنما هو دوايات تمثل تياراً فكرياً معاصراً للإنتهيار العام الذي أصاب البلاد . وفيما بعد وفي عصرى الدولة الوسطى والدولة الحديثة ظهر مؤلف " أنشودة العازف على الجناح " وهو من أقدم الأعمال التي تمتدح الموت وحياة العالم الآخر بل ويصل الأمر إلى حد الشك في وجود العالم الآخر بمهدى الطريق بذلك أمام الدعوة إلى الانغماس في ملذات الحياة . أما أبيات الشعر التي تتعرض لزيغ حياة الإنسان أياً كان وضعه الاجتماعي فتكشف عن أن أعمال الإنسان مهما طال بقاؤها فهي فانية . وهذه الأبيات خير تعبير عن فكر بلغ مرحلة النضوج .

تقول الابيات :

" (..) وتزول أجيال وتروح ،
وتجىء أجيال وتقوم ، منذ أيام الجلود ،
وعم آلهة الزمن الماضى ،
الراقدون فى أهراماتهم .

كل النبلاء والأبرار ،
المسجون فى مقابرهم .
لقد أقاموا الديار فى الماضى ، وقد عفاها الزمن .
ما الذى حل بهم ؟

استمعت إلى كلمات
إيمحوتب وحرور جد
تروى فى إطار الحكم
إنها تحيى على مر الزمان .

ماذا جرى لموطن معيشتهم ؟

لقد أنهارت الجدران ،

راختفت الأماكن ،

وكأنهم لم يولدوا قط ! (..) "

(نقلاً عن النص الفرنسى لترجمة

(P. Posener - Krieger op. Cit. P. 75)

مراجع الكتاب

لم تسمح الحدود التي قلمها طبيعة سلسلة JE - QUE SAIS التي نشرت هذا الكتاب بالإشارة إلى العديد من المقالات المتخصصة التي أوجت بهذه الدراسة التجميعية السريعة ، أو ذكر جميع المؤلفات التي تم الرجوع إليها عند دراسة نقطة معينها . بيد أنه يتعين إرشاد القارئ المتعطش إلى مزيد من المعرفة ، إلى أمهات الكتب التي عالجت ببيان المجتمع المصري وإلى مجموعات النصوص المترجمة ودراسات فن التصوير واضعين أمام القارئ الوثائق نفسها :

* حول المؤسسات والمجتمع :

Q. D. Beriliev. La classe laborieuse en Egypte au Moyen Empire (en russe) , Moscou . 1972 , et les relations sociales en Egypte au Moyen Empire (en russe) , Moscou . 1978 ; J. Cerny , A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period. Le Caire , 1973 , et Valley of the Kings . Le Caire , 1973 ; W. Helck . Untersuchungen zu den Beamtentiteln des Agyptischen alten Reiches , Gluckstadt - Hambourg , 1954 , et Zur Wervaltung des Mittleren und Neuen Reichs . Leyde . 1958 ; G. Ogden , Two aspects of the Royal Palace in the Egyptian Old Kingdom . Colombia , 1982 ; P. Posener - Krieger , Les archives du temple fun`eraire de Neferirkare[^] - Karkai, Le Caire , 1976 : et D. Valbelle , " Les ouvriers

de la Tombe " , Deir el Me`dineh a` l` e`poque rames-
side , Le Caire , 1985 .

*** حول الإنتاج وأسعاره وصناعاته واستخداماته :**

W. Helck Materialien zur Wirtschaftshgeschichte
des Neuen Reiches , Wiesbaden , 1961 - 1969 ; J. J.
Janssen , Commodity Prices from the Ramessid Peri-
od , Leyde, 1975 . A . Lucas et J. R. Harris , Ancient
Egyptian Materials and Industries , 4 ed., Londres,
1962 .

*** حول الأدب بمعنى الكلمة :**

G. Lefebvre , Romans et Contes e`gyptiens de l`
e`poque pharaonique Paris 1949 ; M. Lichtheim. An-
cient Egyptian Literature , Los Angeles . 1975 -
180 , et S. Schott, Les chants d` amour de l` Egypte
ancienne , trad P. Posener - Krieger , Paris , 1956 .

*** حول الأدب التاريخي أو السياسي :**

J. H. Breasted Ancient Records of Egypt, New
York , 1906 ; R. A. Caminos, Late - Egyptian Mis-
cellanics , Oxford , 1954 ; A. H. Gradiner , Ancient
Egyptian Onomastica , Oxford, 1947 : G. Posener ,
Litt`erature et politique dans L` Egypte de la XIIe dy-
nastie, Paris , 1969 : et A. Roccati, La litt`erature his-

torique sous l' Ancien Empire e`gyptien , Paris , 1982 .

*** حول فن التصوير :**

P. Montet Les sc`enes de la vie priv`e`e dans les tombeaux `e`gyptiens de l' Ancien Empire , Strasbourg , 1925 ; et J. Vandier , Manuel d'Arch`e`ologie `egyptienne , t. IV a` VI, Paris, 1964 - 1978.

*** وبصفة عامة وكمدخل اولى وزمهدى ننصح بالرجوع إلى :**

G. Posener, S. Sauneron et J. Yoyotte, Dictionnaire de la civilisation `egyptienne , Paris, 1970 .

*** وللوقوف على الراى الاخير فى موضوع بعينه يمكن الرجوع إلى :**

Lexikon der Agyptologie , Wiesbaden , 1975 - 1986 .

المحتويات

ص

٥

.. المقدمة .

.. الفصل الأول :

١٩

الطبقات الاجتماعية والأوساط الاجتماعية المهنية .

.. الفصل الثاني :

٤٥

الأنشطة المختلفة للمصريين القدماء .

.. الفصل الثالث :

٨١

مستوى المعيشة ومظاهره .

.. الفصل الرابع :

١٠٥

البيئة المصرية .

.. الفصل الخامس :

١٢٩

الحياة الخاصة .

.. الفصل السادس :

١٤٩

الحياة اليومية : ظروفها ومميزاتها .

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر
سلسلة " كتاب الفكر "

العنوان	المؤلف
١ - الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة (طبعة ثالثة) .	د. فؤاد زكريا
٢ - جماعة النهضة القومية .	رؤوف عباس
٣ - محمد مندور وتنظير النقد العربي .	محمد برادة
٤ - تحديث العقل السياسي الإسلامى	د. محمد رضا محرم
٥ - الواقع الفلسطينى : الماضى والحاضر والمستقبل .	د. ادوار سعيد
٦ - الفلسطينيون عبر الخط الأخضر	د. ابراهيم أبو لغد
٧ - بين الأدب والتاريخ .	الكسندر شولش
٨ - مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى	د. قاسم عبده قاسم
٩ - المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة .	لطفي الخولى
١٠ - الحقيقة الغائبة (الطبعة الثالثة) .	د. حسين الصاوى
١١ - نافذة على مسرح الغرب المعاصر	فرج عبده
١٢ - أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة .	فاروق عبد القادر
١٣ - مصداقية الردع النووى الإسرائيلى	د. سيد القمنى
	د. نافع الحسن

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر
إصدارات تاريخية واجتماعية وفنية

المؤلف	العنوان
د. طاهر عبد الحكيم	١ - الشخصية الوطنية المصرية .
إشراف وإعداد د. رؤوف عباس	٢ - مصر وعالم البحر المتوسط (١٣ بحثاً مختارة من سمينار جامعة القاهرة) .
د. على السيد على	٣ - القدس في العصر المملوكي .
د. قاسم عبده الفتاح	٤ - اليهود في مصر من الفتح العربي إلى الغزو العثماني .
د. عائدة سليمة	٥ - مصر والقضية الفلسطينية .
د. فتحى عبد الفتاح	٦ - الناصرية وتجربة الثورة من أعلى (المسألة الزراعية) .
ميهائيل باختين	٧ - الخطاب الروائي .
ترجمة د. محمد برادة	٨ - أمريكا وصناعة الجوع .
فرانسيس مورلايه	
جوزيف كوليتز ، ديفيد	
كيلى/ترجمة د. حسن	
أبو بكر	
شلومو فرائكل	٩ - طواغيت المال والحكم في إسرائيل
وشمشون بينخلر	(مترجمة عن العبرية) .

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر
إصدارات إبداعية

المؤلف	العنوان
سيد حجاب	١ - الأعمال الكاملة (شعر) .
عائشة أرناؤوط	٢ - الوطن المحرم (شعر) .
محسن الخطاط	٣ - حكايات بهية (شعر) .
حلمى سالم	٤ - سيرة بيروت (شعر) .
خيرى شلبي	٥ - الرتد (رباعية قصصية) .
إبراهيم عبد المجيد	٦ - بيت الياسمين (رواية) .
سلوى بكر	٧ - مقام عطية (رواية ومجموعة قصص قصيرة) .
محمد المنسى فنديل	٨ - من قتل مريم الصافي (مجموعة قصصية) .
عبد الحميد قاسم	٩ - الهجرة إلى غير المألوف .
عز الدين نجيب	١٠ - أغنية الدمية (مجموعة قصص) .
محمد الخزرجي	١١ - الموت يضحك .
د. محمد حجي	١٢ - مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس .
ميخائيل رومان	١٣ - إيزيس حبيبتى (مسرحية) .
د. إبراهيم حمادة	١٤ - رطل اللحم (مسرحية) .

رقم الايداع ٥٣٣١ / ١٩٨٩

